

التفسير البلاغى الميسَّر

الجزء الخامس والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور عبد القادر حسين
أستاذ ورئيس قسم البلاغة - جامعة الأزهر



الكتاب : التفسير البلاغي الميسر حـ ٢٥ من القرآن

المؤلف : د/ عبد القادر حسين

رقم الإيداع : ١١٦٢٤

تاريخ النشر : ٢٠٠١

الترقيم الدولي : I. S. B. N. 977-215-520-6

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣,١ شارع كامل صدقي الفجالة – القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول

ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

المقدمة

هذه الصفحات فى تفسير الجزء الخامس والعشرين من الكتاب العزيز. وهذا الجزء يبدأ بقوله تعالى ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ الآية السابعة والأربعين من سورة فصلت ، وسورة فصلت بتمامها أربع وخمسون آية ، أى أن جميع الآيات التى تدخل فى هذا الجزء من سورة فصلت لا تتجاوز ثمانى آيات .

لذلك رأيت أن أعدل عن تناول هذه الآيات الثمانى من سورة فصلت فى تفسير هذا الجزء ، لأنها تدخل مع السورة فى سياق واحد ، فلا يصح تجزئتها أو معالجتها دون بقية السورة ، غير أنى بدأت هذا الجزء بسورة الشورى مستوفيا لها مع سورة الزخرف ومنتهيا بسورة الجاثية .

الحاجة ملحة ، والضرورة قائمة فى هذه النوعية من التفسير البلاغى الميسر لآيات القرآن الكريم. فمعانى القرآن مبثوثة فى كثير من كتب التفسير قديمها وحديثها، ولكن قلّ أن تجد تفسيرا بلاغيا للقرآن يصبو إليه من تهفو نفسه إلى إبراز جمال القرآن وروعة أسلوبه .

أجل إن السامع أو القارئ للقرآن الكريم يحس برهبة وخشوع تتجاوب فى أرجاء نفسه دون أن يدرك سببا لهذا التأثير، أو يجد شيئا ملموسا بين يديه يعتمد عليه فى إبراز هذا الجمال والوقوف على إعجازه .

كان على المهتمين بالتذوق البلاغى والكشف عن أسرار هذا التذوق وبيان أسبابه، إظهار ألفاظ القرآن فى رقتها أو جزالتها، فى سلاستها أو فخامتها. ليس ذلك فحسب، بل كان من خصوصية عملهم إبراز أسلوب القرآن ، وتآخى ألفاظه

وتماسكها بحيث تبدو وحدة واحدة لا تنفصم، وكلمات الجملة كأنها كلمة واحدة لا تتجزأ ولا تتفرق، ولا يصح فيها تقديم لفظ على آخر على خلاف الترتيب الذى جاءت عليه فى القرآن الكريم ، أليس ذلك من دواعى جمال القرآن وروعة أسلوبه؟

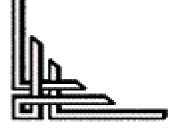
إن التفسير البلاغى للقرآن هو المعول عليه فى إبراز هذه المواطن الجمالية التى ينطوى عليها أسلوب القرآن، فتتفتح لها النفس ويهمس لها الوجدان. وآمل أن يكون هذا الكتاب عميم النفع للبسطاء من الناس ومرتفعى الثقافة البلاغية على حد سواء .

١٩ يناير ٢٠٠٠ م



الجزء الخامس والعشرون

١ – سورة الشورى
٢ – سورة الزخرف
٣ – سورة الدخان
٤ – سورة الجاثية






سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم (١) عسق (٢) كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله
العزيز الحكيم (٣) له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم (٤)
تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم
ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم (٥) والذين
اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل
(٦) وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن
حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير
(٧) ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته
والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير (٨) أم اتخذوا من دونه أولياء
فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ الآيات: ١ – ٩

« حم، عسق » آيتان بخلاف كهيعص، والمص والمر آية واحدة .

وروى القشيرى أن النبى عليه السلام لما نزلت هذه الآية عرفت الكآبة فى وجهه، وظهر عليه أثر الحزن والملالة، فقيل: يا رسول الله، ما أحزنك ؟ قال :

أخبرت ببلايا تنزل بأمتى من خسف ونار تحشرهم، وريح تقذفهم فى البحر، وآيات متتابعات متصلات بنزول عيسى وخروج الدجال .

فقد أوحى إليك يا رسول الله فى هذه السورة مثل ما أوحى إليك فى سائر سور القرآن، وأوحى إليك فى رسالتك التى تنذر بها الخلق ما أوحى إلى غيرك من الرسل إلى أممهم السابقة إلى قومهم، فالكل يدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك، والإرشاد إلى الحق وما فيه صلاح العباد فى المعاش وفى المعاد، فالوحى مستمر لك، متجدد وقتا بعد وقت، وإيحاء مثله على الرسل من عادة الله تعالى، وهو الخالق لكل شىء فى الوجود، ويختص به جميع ما فى العوالم العلوية والأرضية خلقا وملكا وعلما، وهو العلى الشأن، العظيم الملك والحكمة والعلم، المرتفع عن مدارك العقول الذى يصغر عند ذكره وصف كل شىء عظيم من العباد أو الأنبياء والعلماء فالنبى عظيم فى حق أمته، والشيخ عظيم فى حق مريده، والأستاذ عظيم فى حق تلميذه، والعظيم المطلق هو الله سبحانه .

فالسماء تكاد تنشق طولا من عظمة الله وخشيته وجلاله، تنشق من أعلى إلى أسفل فلا تبقى سماء إلا سقطت على ما تحتها من السموات السبع .

وشأن الملائكة تنزيه الله عما لا يليق به من الشريك والولد، وسائر صفات الحوادث، حامدين له مستغرقين فى عبادته، مستغفرين للمؤمنين بالشفاعة، وقبول الغفران من شأنه تعالى، فهو يقبل غفران ذنوب المقبلين عليه، فيشملهم برحمته بأن يرزقهم جنته وقربه ووصاله ويأمر ملائكته بالاستغفار لبنى آدم مع كثرة عصيانهم، وارتكاب ذنوبهم، فلا يقطع عنهم الرزق، ولا يسلب منهم الصحة، ويمتعهم فى الدنيا، وإن كان يريد أن يعذبهم فى الآخرة .

وكذلك أوحينا إليك يا محمد أن تخوف أهل مكة بعذاب الله لإصرارهم على الكفر، فمكة - أم القرى - هى بمثابة الأم لما حولها من القرى، لاشتمالها على البيت الحرام ومقام إبراهيم، وتنذر من حولها من أهل الأرض جميعا، تنذرهم بيوم البعث

والقيامة وما فيه من عذاب، إذ يجمع فى هذا اليوم الخلائق جميعا من الأولين والآخرين، وأهل السماء وأهل الأرض، والأرواح والأشباح، والعمال والأعمال، ولن تكون ثمة ذرة إلا وهى ماثلة أمام الله فى هذا اليوم العصيب، وهذا اليوم لا شك فى مجيئه، وارتياب الكافرين فى وقوعه لا يعتد به، وثمة فريق فى نعيم الجنة، وفريق آخر فى جحيم السعير، ولو شاء الله ليجعل كلا الفريقين فريقا واحدا وجماعة واحدة، المهتدى منهم والضال على دين واحد، إلا أن مشيئة الله عادلة، نابعة من استحقاق كل فريق بحسب عمله، وأعمال الناس تختلف من طاعة إلى عصيان، فيدخل المطيع جنته، والعاصى ناره دون أن يجد له نصيرا ولا أحدا يتولى أمره وينقذه من العذاب ويخلصه من الجحيم، فليس هناك ولى سوى الله، فهو المتولى أمور الخلق من خير وشر ، ونفع وضرّ، وهو وحده الذى يحيى ويميت، لا أحد غيره يمكنه أن يقوم بأمر الحياة والموت، وهو وحده القادر على الإيجاد والإعدام، فهو الحقيق وليا دون من لا يقدر على شىء .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ عبر بلفظ المضارع، والمقام يستدعى التعبير بلفظ الماضى، دلالة على استمرار الوحى، وتجدده وقتا بعد وقت، وأن ذلك الإيحاء هو من عادة الله وشأنه، وذلك لا يختلف مع أحد من الرسل من لدن نوح إلى محمد عليهم السلام .

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ الاقتران بأل يفيد صفة الكمال فى العلو وفى العظمة التى لا يدانيه فيهما أحد سواه .

﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أصل الفطر: الشق طولا، فهى تنشق رهبة وإجلالا من الله سبحانه، وخص الفوقية بالذكر، لأن أعظم الآيات ، وأدلها على قدرة الله وجلاله، من تلك الجهة العلوية، فالعرش والكرسى والملائكة فى هذه الجهة، فكان المناسب أن يكون التشقق والتفطر من أعلى إلى أسفل .

﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ألا أداة تنبيه للخلق جميعا بأن الله هو وحده

الغفور، وهو وحده الرحيم، لا يشاركه أحد فى هذه الرحمة وهذا الغفران، أو أنه ما عداه من رحمة وغفران شيء يسير لا يعتد به إذا قورن برحمة الله وغفرانه .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم ﴾ أى رقيب عليهم، وعبر بصيغة المبالغة دلالة على أن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال الكافرين خاصة وغيرهم على العموم وإن أسروها أو تناجوا بها، فالله مطلع على كل شيء، ويدون الحفظة كل قول أو عمل يصدر عن الإنسان، فكيف يخفى عليه شيء من ذلك؟

﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ الإنذار لا يكون للبلد، وإنما يكون لأهل البلد، والتعبير بالمحل، فيه من عمومية الإنذار حتى يشمل البلد وأهلها، وصحراءها وتلالها وجبالها، وفى ذلك من المبالغة ما لا تجده لو قال لتنذر أهل مكة .

وذكر كلمة (أم القرى) تشريفا لمكة وإجلالا لأمرها حيث تشمل البيت المعظم، وفيها ولد رسول الله عليه أفضل الصلوات .

وبعد أن ذكرها على وجه الخصوص عمم فقال (ومن حولها) من بلاد العرب والعجم، رغم أنها داخلة فى بلاد العرب، رفعا لشأنها وتعظيما لمقدارها عند الله وعند رسوله.

﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ عبر بالتنكير، لتعظيم الفريق الأول وهم المؤمنون الذين يدخلون الجنة، وتحقير الفريق الثانى لدخولهم النار .

وقال (فى السعير) ولم يقل فى النار، وذلك لالتهاب النار حتى صارت مسعرة، فهذه الصفة حالة فى النار، تبين مدى قوتها وتأثيرها .

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ النكرة فى سياق النفى تعمّ، أى ليس لهم نصير ولا ولى من أى نوع كان، لا من أصنامهم ولا من زعمائهم، ولا من أى كائن كان .

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أى هل اتخذوا من دونه أولياء فالاستفهام هنا للإنكار، لا لإنكار الواقع، واستقباحه؛ بل لإنكار وقوعه ونفيه على أبلغ وجه وآكده، فالله هو الولى الحق الذى يجب أن يتولى ، إنه هو الولى لا غيره، وكذلك هو وحده المحيى المميت وليس سواه، وهو القادر دون غيره، فهل يتخذ غيره وليا ؟

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

الآيات: ١٠ - ١٢

هذه الآيات حكاية لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين: إذا اختلفتم أنتم والكفار فى شيء من أمور الدين، فحكمه راجع إلى الله، يثيب المحقين، ويعاقب المبطلين يوم الفصل والجزاء. ويمكن أن يكون المعنى: إذا اختلفتم أيها العلماء فى شيء من أحكام الشريعة فالحكم فى ذلك راجع إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإجماع الأمة وشواهد القياس .

فالله هو ربى وهو الملجأ والمعين، وعليه أتوكل فى جميع أمورى التى من جملتها رد كيد أعداء الدين، وإليه أرجع فى كل ما يعنّ لى من معضلات الأمور التى منها كفاية شر الكافرين والنصرة عليهم .

ومن صفات الله. أنه خالق لكل شيء: للعلويات والسفليات، وللأرواح والأجسام، وجعل لكم من جنسكم نساء وحلائل، وجعل للأنعام من جنسها أزواجا وأصنافا، ويعمل على كثرتهم وزيادتهم عن طريق التوالد والتناسل، فالله متوحد فى ذاته وليس مثله أحد فهو العليم لكل ما يسمع وما يبصر، وبيده مفاتيح خزائن الكون

كله، ويقدر عليها ويتصرف فيها كيفما شاء، فلا يستطيع أن يتصرف فى الخزانة إلا من يملك مفتاحها. وهو الذى يوسع الرزق ويضيّقه بحسب حكمته، إذا علم أن فى السعة خيرا، وأن فى الضيق اعتبارا، فهو عليم بكل شىء مبالغ فى الإحاطة به، يفعل كل ما يفعل على ما تقتضيه مشيئته وإرادته .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ تقديم الجار والمجرور « عليه توكلت، وإليه أنيب » يفيد الاختصاص: أى لا أتوكل إلا عليه، وليست إنابتى ورجوعى إلى أحد سواه .

ونلاحظ أنه عبر بالماضى فى توكله، وبالمضارع فى أنيب؟ لأن التوكل أمر واحد مستمر، ثابت لا يتجدد، أما الإنابة فهى متجددة حسب تجدد موادها فأوثر فى الفعل الأول المضى، وفى الفعل الثانى المضارع حيث إنه يفيد التجدد والحدوث.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لفظة من أنفسكم لها دلالتها العميقة من حسن الأثر فى المعاملة، ومما ينبغى أن تكون عليه، وفى ذلك تنبيه على أن يتعامل الرجل مع حليلته بكل الرحمة والوفاء والمساعدة، كما يتعامل مع نفسه مباشرة، فالإنسان حريص على نفسه كل الحرص، ولا يحب أحدا بقدر حبه لنفسه، فالزوج هى نفس الإنسان وليست شيئا خارجا عنه، وعلى هذا ينبغى أن تكون نظرة الإنسان إلى الزوج .

ولما كانت الأنعام أقل مستوى من البشر ، وهى تتصرف بغريزتها وحدها، وغريزتها تدلها على معاملتها لزوجها وذريتها، لم يذكر فى هذا المقام كلمة ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ بل قال : ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ ..

﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ الذرء: البث، ذرأ : كثر، ومنه الذرية، والنسل وقال: ﴿ يَذْرَؤُكُمْ

فيه ﴾ ولم يقل يذرؤكم به، مع أن الذرء ليس ظرفا للتكثير، بل هو سبب له، لأن هذا الذرء كالمنبع بالنسبة للكثرة والبث. وإنما يعول على ذلك التعبير لتغليب المخاطب على الغائب حيث لم يقل يذرؤكم وإياهن؟ لأن الأنعام ذكرت بلفظ الغيبة. ولتغليب العقلاء على غيرهم حيث لم يقل يذرؤها وإياكم الخاصة بالعاقل .

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ المثل هنا كناية عن الذات، كما يقول: مثلك لا يفعل كذا، تريد نفى الفعل عنه على قصد المبالغة، لأنك إذا نفيت الفعل عن مثله، فقد نفيته عنه بطريق الأولى، أو الكاف هنا زائدة لفظا، والتقدير: ليس مثله شيء .

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مقاليد جمع مقليد بمعنى المفتاح، وهى كلمة فارسية معربة: ويلزم من ذكر المفتاح ذكر ما تحويه السماء والأرض، إذ إن المفتاح وسيلة إلى فتح الخزائن والصناديق المغلقة، فعبر بالسبب أو اللازم وأراد المسبب أو الملزوم .

★ ★ ★

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن
يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا
الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ
لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

الآيات: ١٣ - ١٥

سن الله لكم يا أمة محمد من التوحيد، ودين الإسلام، وأصول الشرائع والأحكام ما أمر به نوحا عليه السلام، كما شرع لكم ما أوحى به إلى محمد، وإبراهيم وموسى وعيسى، وخص هؤلاء الرسل الخمسة بالذكر، دون غيرهم؛ لأنهم أكابر الأنبياء ومشاهيرهم من أولى العزم، وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة .

وقدم نوحا عليه السلام؛ لأنه أول أنبياء الشريعة، وأول من أوحى إليه الحلال والحرام، وأول من أوحى إليه تحريم الأمهات والأخوات والبنات وسائر ذوات المحارم، فبقيت تلك الحرمة إلى يومنا هذا .

شرع لهؤلاء الرسل جميعا على إقامة دين الإسلام، وتوحيد الله وطاعته والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر، وغير ذلك من الأمور المشتركة بين الأديان السماوية جميعا، وأن يحفظوا لهذا الدين أركانه، ويخافوا عليه من الوقوع فى زيغ أو ضلالة، بل عليهم أن يواظبوا عليه، ويشمروا له .

كما نهاهم أن يختلفوا فى أصول الدين، والدين عند الله الإسلام من غير تفرقة بين نبى ونبى. أما الفروع والأحكام فالاختلاف فيها ناشىء عن تفاوت الطباع واختلاف الأمم، ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا .

ونحن نعلم أن ما تدعوهم إليه من التوحيد، ورفض عبادة الأصنام والتعدد مما يعظم لديهم ويشق عليهم، والله مطلق الإرادة يجمع إلى جنابه على طريق الاصطفاء من يشاء من عباده بحسب استعداده، ويهدى إليه بالعناية من يقبل عليه، بأن يخصه بفيض إلهى يتحصل منه أنواع من النعم بلا سعى من العبد. وذلك للأنبياء عليهم السلام، ولبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء .

إلا أن اليهود والنصارى قد تفرقوا فى الدين الذى دعا إليه الأنبياء، ولم يؤمنوا به كما آمن بعضهم فى وقت من الأوقات حين علموا ببعث الرسول عليه السلام، وهم لم يختلفوا فى الدين إلا ابتغاء لطلب الدنيا، ورغبة فى امتلاكها، وسياستها، وجاهها وشهرتها لأن لهم فى ذلك شبهة. ولولا أن الله وعدهم بتأخير العقوبة إلى يوم القيامة، لقضى عليهم واستأصل شأفتهم، وقطع دابرهم، ولكن المشركين الذين أوتوا القرآن بعد ما أوتى أهل الكتاب التوراة والإنجيل، لفى شك فى القرآن، واضطراب وقلق فى النفس، وسمى الشك بالريب، لأنه يريب النفس ويزيل طمأنينتها ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ .

ومن أجل ما ذكرنا من التفرق والشك المريب، فادع أيها الرسول الناس كافة إلى إقامة دين الإسلام والعمل بموجبه، واثبت على هذه الدعوة وداوم عليها، ولا تتبع أهواءهم الباطلة من تعظيمهم لآلهتهم وعبادة أوثانهم، وكن مؤمنا بالكتب السماوية المنزلة جميعها، لا تفرق بين شريفهم ووضيعهم فى تبليغ الشرائع والأحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والمخاصمة إلينا .

فأنا ربكم وخالقكم ومتولى أموركم، وليست الأصنام ولا الأهواء. والرسول والمؤمنون لهم أعمالهم، لا يتخطاهم جزاؤها ثوابا، والكافرون والعصاة لهم أعمالهم لا يجاوزهم جزاؤها عقابا، والحق قد ظهر واستبان، فلا محاجة ولا خصومة، إذ لا حاجة إلى المخالفة والمكابرة والله يجمع بيننا يوم القيامة، وإليه مرجع الكل لفصل القضاء فيظهر حالنا وحالكم .

* * *

الأسرار البلاغية :

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ كلمة التوصية فيها معنى التأكيد، والاعتناء بشأن المأمور به ..

ثم خاطب نبيه عليه السلام بلفظ الإيحاء وليس بلفظ التوصية ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لما فى الإيحاء من إشعار بالرسالة، فكأن رسالة محمد هى الكاملة المستوفية بالنسبة لسائر الرسل .

وعبر بنون العظمة « أوحينا » ولم يقل مثل ذلك فى « وصى به نوحا » حيث عبر بالضمير المفرد؛ لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه، ومن أجل ذلك تقدم ذكره على ما بعده من الرسل الذين سبقوه فى زمن الدعوة، مثل إبراهيم وموسى وعيسى .

وجه الحديث إلى محمد بالخطاب، لتشريف الرسول والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه .

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ إجابة عن سؤال مقدر مفهوم من الكلام، كأنه قيل: وما ذلك المشروع المشترك بين هؤلاء الرسل، قيل: هو إقامة الدين، أى دين الإسلام .

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ كبر، جاء على صيغة فَعُل للمبالغة فى عظم المشقة التى سادت بينهم حين دعاهم إلى الدين .

وفى قوله: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ذُكرت تأكيدات: إن واللام، وتقديم الجار والمجرور كل هذه العوامل تفيد تأكيد شكهم وريبهم، والشك لا يوصف بأنه مريب، وإنما يقع الريب فى صدر الذى يشك، فمريب تعبير مجازى .

ثم أمر رسوله بالدعوة والاستمرار فيها، كما أمره بالاستقامة والحث عليها، فالأمر هنا مجازى قصد به الترغيب والحث على الفعل، كما نهاه عن اتباع أهوائهم، على طريق المجاز أيضا حيث قصد بالنهى إنكار أهوائهم وتحقيرها، ونبذها ..

﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ تقديم الخبر هنا « لنا » و« لكم » يفيد أن كلا من الفريقين جزاؤه من جنس عمله، إن خيرا فجزاؤه خير، وإن شرا فجزاؤه شر، ولن يقع الضرر على من أحسن العمل، ولا يحصد الخير من أساء الفعل أو العمل .

★ ★ ★

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ⟨١٦⟩ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ⟨١٧⟩ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ⟨١٨⟩ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ⟨١٩⟩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ⟨٢٠⟩ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⟨٢١⟩ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾

الآيات: ١٦ - ٢٢

أى الذين يخاصمون فى دين الله من بعد ما استجاب له الناس، ودخلوا فيه لظهوره، وعبر بكلمة الاستجابة باعتبار دعوتهم إليه، فأذعنوا لذلك، فكأنهم استجابوا له، فهؤلاء الذين يجادلون فى هذا الدين أباطيلهم زائلة وباطلة، وعليهم غضب عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره، ولهم عذاب شديد على كفرهم العميق، وضلالهم البعيد وهو عذاب جهنم .

فالله أنزل كتبه ملتبسة بالحق، منزهة عن الباطل، موضحة للعقائد والأحكام، وأنزل معها الشرائع التى توزن بها الحقوق وتسوى بين الناس كأنها الميزان الذى يوزن به حقوق العباد، والساعة آتية لا ريب فيها، والحساب حق على العباد، ولكن ما يدريك بوقت مجيئها وحلولها. فاتبع الكتاب يا محمد واعمل به، وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بوقوع الساعة يستعجلون وقوعها إنكارا واستهزاء واستبعادًا لقيامها، فلا يشفقون من وقوعها، ويقولون: ليتها قامت حتى يظهر لهم أننا على حق وهم على باطل، أما المؤمنون بوقوعها فهم مشفقون منها لذا لا يستعجلون بها، فهى عندهم واقعة لا محالة إلا أنهم لا يتمنون الموت؛ خوف الابتلاء بما بعد الموت ، يريدون الاستعداد له بالعمل الصالح. وإذا ورد لم يكرهوه، إذ لا يتمنى الموت إلا جاهل أو مشتاق فالذين يجادلون فى وقوع الساعة محاطون بضلال بعيد .

ولكن الله لطيف بعباده، بارٌ بهم، يفيض عليهم من فنون ألطافه الشىء الكبير، والنعمة السابغة، يرزق عباده كيفما شاء، حسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة، فهو القادر المنيع الذى لا يغلب .

فمن كان يريد بعمله من الكافرين والمنافقين متاع الدنيا وطيباتها – حيث كانوا مع المؤمنين فى المغازى، وغرضهم الأول ليس الدفاع عن الدين، وإنما كان الحصول على الغنيمة – من كان يريد هذا المتاع نعطه شيئا منه حسبما قسمنا له، وما له فى الآخرة نصيب، إذ كانت همته مقصورة على المنافع الدنيوية، وعندئذ يحرم من ثواب الآخرة. وفى الحديث « من كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له » .

أم لمشركى قريش نظراء من شياطين الإنس والجن يعاونونهم على الكفر والعصيان بالتزيين والإغراء، سولوا لهم من الدين الفاسد ما لم يأذن به الله من الشرك وإنكار البعث والعمل لمتاع الدنيا، ولولا أن قضاء الله قد سبق بتأخير العذاب، وأن الحساب يوم القيامة لحكم بينهم، وفصل بين الحق والباطل فى هذه

الدنيا، ولكن وعيدنا لهم سينفذ يوم القيامة، فلهم عذاب متفاقم المه، ولا يطاق لذعه، وسوف تراهم يوم القيامة مذعورين مشفقين مما ارتكبوه من آثام فى دنياهم، يرون العذاب واقعا عليهم، لاحقا بهم أشفقوا أو لم يشفقوا، بخلاف موقف المؤمنين فهم مستقرون فى أطيب بقاع الجنة وأنزهها، وليس هنالك فضل ولا فوز أكبر من ذلك، حيث استهانوا بمتاع الدنيا وحقروا من شأنها .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أى فى دين الله، والله سبب فى وجود هذا الدين وإنزاله على رسله فعبر بالسبب وأراد المسبب ، ومن يجادل فى دين الله فكأنه يجادل فى الله نفسه، ومن يهوّن فى عمل شخص ما فكأنه هون من الشخص نفسه، وذلك لما فيه من تعظيم الإثم حين تنسب المحاجة إلى الله .

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهى ليست حجة فى الواقع، وإنما هى أباطيل، فاستعار الحجة للأباطيل، وسمى أباطيلهم حجة كنوع من مجاراة الخصم حتى يصل به إلى فساد اعتقاده .

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الغضب لا يعلو حقيقة، وإنما هو تعبير مجازى قصد به شدة غضب الله عليهم حتى إنه نزل عليهم وشملهم من فوقهم، فكأن الغضب يركبهم ويكاد يفتك بهم، ولهم عذاب، كأن العذاب دين لهم على الله، وكأن على الله أن يوفى العذاب لهم دون أن ينقص منه شيئا، ووصف هذا الدين المتمثل فى العذاب بأنه شديد .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ أى أنزله حقا لا باطلا، وعدلا لا ظلمًا، فشبه التسوية بين الناس فى الجزاء وأن كلا يأخذ بما كسبت يداه، بالميزان الذى نلجأ إليه حين نريد الدقة فى الأمور لا زيادة ولا نقصان، فاستعار الميزان للتسوية، والميزان فيه تأكيد وتقوية للتسوية، لأنه أمر حسى عبر به عن أمر معنوى والحسى أظهر وأوقع فى النفس من المعنوى .

﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ لعل وضعت للرجاء، وليس الرجاء مرادا هنا . بل التوقع بقرب وقوع الساعة، فالتعبير بلعل تعبير مجازى .

وذكر « قريب » لأنها ليست وصفا للساعة، وإنما هى وصف لمجيء الساعة، أى قريب مجيئها .

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ معنا جملتان ذكر فى الأولى الاستعجال وأخفى الإشفاق، وذكر فى الثانية الإشفاق وأخفى الاستعجال، فذكر فى الأولى شيئا وأخفى ضده، وحذف فى الثانية شيئا وأبقى ضده، وهذا يسمى فى عرف البلاغيين « الاحتباك ».

﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ الا أداة تنبيه تفيد التوكيد، وإن أيضا تفيد التوكيد، لفى، اللام تفيد التوكيد أيضا، هذه المؤكدات واحدا تلو الآخر تؤكد بشدة أن كل من يجادل فى وقوع الساعة منغمس فى ضلال ما بعده ضلال .

﴿لَفِي ضَلالٍ﴾ الضلال شيء معنوى، وليس مكانا حتى تدخل عليه « فى » كما تقول الماء فى الكوب مثلا، فهو تعبير مجازى .

﴿يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾، أى يجادلون فيها، فاستعار المماراة للمجادلة، حيث شبه المجادلة بمماراة الحالب للضرع لاستخراج ما فيه من اللبن، حيث إن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة .

ووصف الضلال بأنه بعيد « لفى ضلال بعيد » مع أن البعد فى الحقيقة للضال وليس للضلال، فقال « ضلال بعيد » على سبيل المجاز .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ لطيف صيغة مبالغة، أى بليغ كامل اللطف، ونكره أيضا لهذا الغرض .

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أى الباهر القدرة الغالب على كل شيء، وهو يناسب لطفه للعباد . والقوة فى الأصل: صلابة البنية وشدتها، وهى ضد الضعف، وذلك محال على الله تعالى وإنما أريد بها القدرة، والقوة مسببة عن القدرة، والتعبير مجازى .

والعزيز: يلائم تخصيص من يشاء بمن يشاء، فهو إذن من اللف والنشر، حيث جعل لكل ما يليق به، القوى يناسب اللطيف بعباده، والعزيز يناسب يرزق من يشاء .

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الحرث فى الأصل: إلقاء البذر فى الأرض ويطلق على ما يخرج من الأرض من زرع، واستعير لثمرات الأعمال ونتائجها، فشبه الأعمال بالبذور، فإن كانت البذرة حسنة أتت ثمارا حسنة، وإن كانت معيبة رديئة لم تأت إلا بالهمل الهش من الثمار. والأعمال أيضا إن كانت حسنة فجزاؤها حسن، وإن كانت سيئة فجزاؤها سيئ .

ثم تأمل حين يقابل الله العمل للآخرة بالزيادة فى الثواب (نزد له فى حرثه) بينما قابل العمل للدنيا بشىء يسير مما يستحق من فضلها (نؤته منها) وليس له نصيب من الثواب فى الآخرة. فالله لا يقابل عمل الإنسان بالعدل الذى يستحق، وإنما يقابله بالفضل الذى لا يستحق، فالله كريم حقيق بالقوة والعزة .

﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ نكرّ ﴿نَصِيبٍ ﴾ والنكرة فى سياق النفى تعم، أى ليس له نصيب ما، ولو كان قليلا .

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ﴾ أم هنا للإضراب عن الكلام السابق، وكأنه استأنف كلاما جديدا أراد به التهكم عليهم والإنكار لهم، فيقول على سبيل السخرية: هل لهم شركاء من الشياطين سولوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، هل لهم من شركاء أمروهم بالشرك وإنكار البعث والتكذيب برسول الله ؟ وانظر إلى لفظة الدين (شرعوا لهم من الدين) وما أمرتهم به الشياطين ليس دينا فى الواقع، ولكنه أخبر بذلك مشاكلة لما ذكر قبل ذلك من دين الله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾ .

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ « ترى الظالمين » فعبر بالظاهر بدلا من الضمير أى تراهم ولكنه عدل عن الإضمار تسجيلا عليهم بالظلم، وما يصيبهم من العذاب بسبب ظلمهم وانغماسهم فيه .

وترى المقابلة بين الكافرين وما ارتكبوه من ظلم، فهم مشفقون من العذاب بسبب ما ارتكبوه. وبين المؤمنين وما فعلوا من عمل صالح فهم مستقرون فى نعيم الجنات، وتحقق جميع رغباتهم، وكل ما يشاءون، وهذا هو الفضل الذى ليس بعده فضل .

★ ★ ★

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

الآيات: ٢٣ - ٢٦

هذا الفضل الكبير ، والثواب العظيم ، بشر به الله عباده المؤمنين على لسان النبى صلى الله عليه وسلم، وهو لا يطلب منكم على ما يبلغكم به ويبشركم عليه من أجر كما لم يطلب الأنبياء الذين سبقوه أجرا ، إلا أن يودكم لأجل قرابته منكم ، وتكفوا عنه الأذى ولا تعادوه ، إن كان ذلك يعد أجرا ، لكنه ليس بأجر على الإطلاق فليس ثمة بطن من بطون قريش إلا بينها وبين رسول الله ﷺ قرابة ، فإذا كانت قرابته قرابتكم ، فدفع الأذى عنه لازم عليكم شرعا وعادة ومروءة سواء وقع منه تبليغ أو لا ، وقد كنتم تتفاخرون بصلة الرحم ، ودفع الأذى عن الأقارب ، فما بالكم تؤذون رسول الله ؟ ومن يكتسب حسنة نزد له فى حسناته ، ونضاعفها له ، ونوفقه لعمل مثلها وإنى سوف أجازيه عن هذه الحسنات ، وأثيبه عليها .

ولكن كفار مكة أضربوا عن الكلام السابق بأن لهم شركاء ، وادعوا أن محمدا زعم النبوة وتلا القرآن ، والله ينكر عليهم هذا الزعم وتلك الفرية ،فلو كان محمد

افترى القرآن وزعم النبوة لشاء الله أن يحجب عنه صدور القرآن ، وأن يمنع عنه النبوة ، ولكنه لم يشأ ، بل تواتر الوحى بذلك ، وهذا إيذان بأنه مرسل من قبل الله ، وأن ما يتلوه هو من عند الله . ومن عادة الله سبحانه أن يمحو الباطل ويثبت الحق ، ولو كان افتراء كما زعموا لمحقه ودفعه ، فالله يعد رسوله بمحو الباطل الذى هم عليه ، وما هم فيه من بهت وتكذيب ، ويثبت الحق الذى هم عليه بالقرآن ، والله عليم بمضمرات القلوب ، وخواطر الصدور ، فيجرى عليها أحكامها اللائقة بها من محو وإثبات .

والله يتجاوز عن سيئات عبيده إذا رجعوا عنها بالندم عليها والعزم على ألا يعاودوها أبدا ، فمن تاب منهم قبلت توبته ، لأنه إذا لم يقبل توبتهم، كان فى ذلك إغراء لهم بالمعاصى والإقدام عليها والاسترسال فيها ، ويعفو عن سيئاتهم صغيرها وكبيرها عدا الشرك ، يعفو عن ذلك بمحض إرادته ورحمته ، وكما يعفو عن سيئاتكم ، ويعلم ما تفعلون من حسنات وسيئات وما تفعلون من حسنات يعفو بها عن السيئات .

ويستجيب الله لدعاء الذين آمنوا وعملوا عملا صالحا ، ويزيدهم من فضله على ما سألوه تفضلا وتكرما . أو يستجيب المؤمنون لله بالطاعة ، ويزيدهم علي ما استحقوه من الثواب تفضلا، فالمؤمنون لهم ثواب وفضل ، والكافرون لهم عذاب ومشقة .

وقد يخطر بالذهن هذا السؤال: إذا كان الله يقبل توبة االتائبين ، ويغفر زلة المؤمنين والطائعين فيدخلهم الجنة ، فلمن أعدت النار إذن ؟

والجواب : أن الكافرين لهم عذاب وصفه الله بأنه عذاب شديد .

فالعصاة من المؤمنين لهم عذاب ، ولكن ليس شديدا ولا غليظا .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ لا أسألكم عليه أجرا أى نفعا، والنفع من مستلزمات الأجر ، والمودة فى القربى : كناية عن ترك أذى الرسول ﷺ ، وسمى

المودة أجرا تشبيها به ، فنفى الأجر أولا ، ثم أثبته فى صورة أخرى وهى المودة فكأنه استثنى مدحا من مدح ، فهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فنفى الأجر عن تبليغ الرسالة مدح للرسول، ثم استثنى منه مدحا وهو القربى ، فإذن مدح جاء بعد مدح ، لكن لما كان الاستثناء من المدح يفيد الذم ، ثم اتضح أنه ليس ذما ، بل مدحا ، فهو تأكيد المدح بما يشبه الذم .

ومن ناحية أخرى يمكن القول : لما كان الأجر فيه نوع من المودة ، كانت المودة والأجر متماثلين ، وهو ما يسمى بالتنويع كما تقول :

وبلدة ليس بها أنيــــس   إلا اليعافير وإلا العيس

فاليعافير والعيس هى نفس الأنيس .

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ اى يكتسب حسنة ؛ لأن الاقتراف يستعمل فى الأكثر وفى العادة فى الإساءة وليس فى الإحسان ، فاستعار الاقتراف للاكتساب .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ فالشكر من الله مجاز عن تقديم الثواب لمن يفعل الحسنات، فاستعار الشكر للإثابة من حيث إن كلا منهما يتضمن الإكرام لفعل الغير.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الاستفهام هنا للإنكار التوبيخى ، أي كيف يمكنهم أن ينسبوا إلى الرسول الافتراء وخاصة الافتراء على الله ، فهو أفحش فرية وأعظمها إثما .

والفرق بين الفرية، والكذب..

أن الافتراء اختلاق الشيء بدافع من النفس ، وليس بتأثير من الغير ، أما الكذب ، فقد يكون للتقليد وللغير فيه مدخل .

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ ويمح مضارع لم يسبقه جازم ، وقد حذفت الواو من آخره تخفيفا واختصارا ، كما حذفت من قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ ﴾ (الإسراء : ١١) ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ (القمر : ٦) ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ (العلق : ١٨)

وعبر بصيغة الفعل المضارع لاستمرار محو الباطل ، وإحقاق الحق .

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ والفعل يقبل يتعدى بمن وليس بعن ، وإنما ضمن معنى التجاوز، أى يتجاوز عن عباده .

﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أى ويثيب الذين آمنوا على طاعتهم ، فاستعار الاستجابة للإثابة : لأنه جعل دعاءهم وما ترتب عليه من الثواب ، بمنزلة الاستجابة للدعاء ، فعبر عنه بذلك تعبيرا مجازيا ، واستعاره له .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

الآيات: ٢٧ - ٣١

أى ، لو وسع الله الرزق لعباده لطغوا فى الأرض وظهر منهم العصيان ؛ لأن الغنى مدعاة للأشر والبطنة والكبر فيوقع فى الفساد والإثم ، ولكن البغى مع الفقر أقل ؛ لأن الفقر يؤدى إلى انكسار وتواضع في الغالب ، والغنى مؤد إلى البغى غالبا ، فلو عم البسط كل العباد ، لغلب البغىَ وانقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن ، ولذا فالله محيط بخفايا أمور خلقه ، يقدر لكل واحد منهم فى كل وقت من الأوقات ما يليق بشأنه ، فيفقر ويغنى، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه حكمته، ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم جميعا لهلكوا، ومن رحمة الله بعباده أن ينقذهم من الجدب فينزل عليهم الغيث ، ولم يقل المطر ؛ لأن المطر قد يضر ، وقد يأتى فى غير حاجة إليه ، فيفسد ويدمر. أراد بإنزال الغيث أن يعم الخلق بنفعه وبركته نباتا أو حيوانا أو إنسانا ، سهلا ، أو جبلا أو واديا . فالله هو السيد الذى يتولى أمور عباده بالإحسان ونشر الرحمة ، وهو المستحق للحمد على ما أسبغ علينا من نعمه العديدة .

ومن دلائل قدرة الله تعالى خلقه السموات والأرض وما أوجد فيهما من الحياة التى تدب على الأرض أو فى السموات وما بينهما كالملائكة ، فإنها تطير ولا تمشى على الأرض ، وكل ذلك يدل على شأنه العظيم ، فالله إذن قادر على جمع هذه الخلائق كلها ، وحشر الأجسام جميعها بعد البعث لمحاسبتها ، وهو متمكن من ذلك فى أى وقت يشاء .

وكل ما يصيبنا من آلام وأسقام وقحط وخوف ، حتى عثرة القدم ، واختلاج العرق ، وخفقة القلب ، وكل ما يصيبنا فى البدن أو فى المال أو فى الأهل أو فى العيال ، فبما اقترفناه من معاص ، وما ارتكبناه من آثام ، وفى الحديث :

« لا يرد القدر إلا بالدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » صدق رسول الله ﷺ .

وإن كان يعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها ، ولولا عفوه ما ترك على ظهر الأرض من دابة .

فنحن لسنا بممتنعين عنه ، فارين منه ، ولا نستطيع أن نعوقه عن تعذيبنا إذا أراد ، وليس لنا من يتولى أمورنا ، ويحمينا من مصائبنا ، أو يدفع عنا العذاب الذى ينتظرنا ، وعلى المرء إذا وقع فى معصية أن يسرع إلى محاسبة نفسه؛ ليعرف من أين وقع على الإثم ، فيبادر بالتوبة لينقذ نفسه من الهلكة .

* * *

الأسرار البلاغية :

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ البغى فى الأرض كناية عن الفساد ، ويقول ابن عباس رضي الله عنهما : « بغيهم فى الأرض طلبهم منزلة بعد منزلة ، ومركبا بعد مركب ، وملبسا بعد ملبس » .

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ نزول القطر بعد اليأس ، ينشرح له الصدر ، كوجود الضوء بعد الظلمة ، ونشر الرحمة يكون بعموم النفع ودفع الأذى ، وهى سبب فى ذلك .

﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ يدخل فى باب التورية ، ولها معنيان أحدهما قريب والآخر بعيد، والمراد البعيد منهما ، فالمعنى هنا أن الضمير فى « وهو الولى » يعود على لفظ الجلالة سبحانه ، وهو غير مراد، ويراد المعنى البعيد الذى يعود على الغيث، فالولى من أسماء المطر ، والحميد ، أى المحمود أثره ونفعه .

﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ﴾ أى من حياة ، فالدّب مسبب عن الحياة ، والحياة سبب فى الدب ، فالتعبير مجازى بذكر المسبب وإرادة السبب .

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ ﴾ تنكير مصيبة هنا جاء للعموم ، أىّ نوع كان من أنواع المصائب صغيرها وحقيرها ، كبيرها وجليلها على حد سواء .

﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾أى بسبب معاصيكم ، وعبر باليد لأنها سبب فى اقتراف الآثام ، وأكثر الأعمال لا يزاول إلا بها .

★ ★ ★

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

الآيات: ٣٢ - ٤٣

ومن دلائل وحدة الله وقدرته وعظمته وحكمته تلك السفن الجاريات فى البحر ، وهى سفن عظيمة ضخمة فى علو الجبال ، هذه السفن إذا أراد الله لها أن يسكن الريح التى تجرى بها فتظل ساكنة ثابتة بعدما كانت جارية بريح طيبة ، أليس

فى ذكر السفن التى تجرى تارة ، وتثبت أخرى، علامة عظيمة لكل من يصبر على تحمل البلايا فى طاعة الله ، شاكرًا لنعم الله عليه باللسان أو الجنان، أو باستعمال كل عضو من الأعضاء فيما خلق له ، فالإيمان يرجع كله إلى الصبر والشكر ، فنصفه صبر على المعاصى ، ونصفه شكر على النعم وأداء الواجبات الشرعية .

أو يهلك الله السفن بمن عليها بما كسبوا من ذنوب ، وينجى آخرين بطريق العفو عنهم ، وذلك ليعلم الذين يكذبون ويسعون فى إبطال الدين ما لهم من مهرب من العذاب . وهنا تشبيه مفهوم من الكلام : فكما لا مخلص لهم إذا وقفت السفن أو عصفت الريح ، كذا لا مهرب لهم من العذاب بعد البعث ، فلابد من الاعتراف بأن النافع والضار هو الله ، وكل أمر عارض إنما يكون بتأثيره .

وما وهبكم الله من شيء مما ترغبون فيه وتتنافسون فى الحصول عليه من مال ومعاش وأولاد فى هذه الدنيا القصيرة فهو زائل فان ، وأمّا ما عند الله من ثواب الآخرة ، فنفعه أبقى وخيره أدوم ، فهو لا يزول ولا يفنى بخلاف ما فى أيدى الناس، وهذا لمن أخلص الإيمان وتوكل على ربه ، لا على غيره ، وترك كل شيء ، فى معية الله سبحانه. وعن على رضى الله عنه . أن أبا بكر تصدق بماله كله ، فلامه جميع المسلمين فنزل قوله تعالى ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

ووصف المؤمنين المخلصين فى إيمانهم بصفات أخرى تلازمهم حتى يجنوا ثواب الآخرة، فمن هذه الصفات اجتناب الكبائر من الإثم ، فالكبيرة هى كل ذنب تعظم عقوبته ، والإثم هو الذنب. ومن الكبائر : الغيبة والتجسس ، والتطفيف فى الكيل والوزن ، والحسد ، والخيانة ، وترك الوفاء بالعهد ، والكبر ، بالإضافة إلى ترك الصلاة والصوم والزكاة والحج لمن يقدر على أدائها ، وكتم الشهادة ، وقطع الرحم ، والسعى بين الناس بالفساد ، والحلف بغير الله ، وأن تقول للمسلم يا كافر ، وأن تصادق المسئول الجائر ، إلى غير ذلك. كل ذلك يدخل تحت الإثم ، كما وصف المؤمنين بتجنب الفواحش ، والفاحشة هى الزنا وما يشتد قبحه من الذنوب ، والفواحش وإن كانت بعض الإثم ، وإنما خصها بالذكر إيذانًا بكمال شناعتها وقبحها.

ومن أوصـاف الإيمان الكامل ، أن المؤمنين من شـأنهم العفـو والتجـاوز والحلم ، وكظم الغيظ وقت الغضب .

ومن صـفـات المؤمنين اسـتجـابتهم لرسـول الله ، ومن يسـتجـب للرسـول فـقـد استجاب للمرسل وهو الله جل شأنه. نزلت هذه الآية فى الأنصار حين دعاهم رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلى الإيمان ، فـاسـتـجـابوا له من صـمـيم قلوبهـم ، ومن أوصـاف الأنصار أنهم مواظبون على أداء الصلوات الخمس ، وخص الصـلاة بالذكر دون غـيرهـا من العـبـادات كـالصـوم والحج والزكـاة . إذ ليس بين العبـد والإيمان إلا إقامة الصـلاة ، وليس بينه وبين الكفر إلا ترك الصلاة ، فإذا أقامها فقد أقام الدين وإذا تركها فقد هدم الدين .

ومن أوصـافـهـم أنهم لا ينفـردون برأى ، وإنما يتشـاورون ويجتـمـعـون ويقـررون فأمرهم شورى بينهم، لا يستبدون برأى فيما لا وحى فيه من أمور لدين.

وينفـقـون من الأمـوال التى رزقناهم بهـا ، فى سـبيل الطاعـات والخيـرات ، أمـا إنفاق الكافر فلا التفات ولا اعتبار به ، فخيره مُحبط بكفره .

وإذا تعدى عليهم أحد بظلم إنتقموا منه واقتصوا ممن بغى عليهم دون مجاوزة الحدّ المعين الذى أصـابهم من الظالم ، فقد كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسـهم فتجترئ عليهم السفهاء فالإساءة تقابل بمثلها دون زيادة ، فإذا شتمك أحد فلك أن تشتمه بما شـئت مـا لم يكن فـيـه حـد كلفظ الـزنا . إلا أن العـفـو أفـضـل ، والإغـضـاء عن الإسـاءة أحسن ، ومن يعفـو ويصلح فـثوابه كـبيـر عند الله ، والله لا يحب البـادئين بالسيئة ، والمتعدين فى الانتقـام ، وإنما شـرعت المجـازاة ، وشـرطت المسـاواة لأنه لا يحب الظالمين .

ومن ينتقم ويقتص بعد ظلم فليس عليه عتاب أو عقاب ، لأنه فعل مـا أبيح له من الانتصار ، وهذا فى الأمور المالية لا فى الجنائية .

والإثم كل الإثم يقع على من يبدأ بـالضـرر أو يتـعـدى فى الانتـقـام وعلى من يتجبر ويفسد ، والله يتوعد من يفعل هذا الظلم ويقترف هذا البغى ، أما من يصبر

على الأذى ويغفر لمن ظلمه ويفوض أمره لله سبحانه ، فإن ذلك مما يجب العزم عليه لكونه من الأمور المحمودة عند الله . فالعزم : عقد القلب على إمضاء الأمر .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ شبه السفن بالجبال ليبين مقدار ضخامتها وشأنها، ومع ذلك فهو المتحكم فيها إن يشأ يحركها وإن يشأ يثبتها ويسكنها على ظهر البحر فلا تجرى .

﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ وقدم الجار والمجرور للاهتمام بأمر السفن فهى علامة من العلامات الدالة على قدرة الله جل شأنه ، فى سكونها آية وفى جريانها آية أخرى . فعلى المرء - رغم كونه ضئيلا إذا قورن بالسفينة الشاهقة كالجبل - أن يصبر على احتمال البلاء فى طاعة الله ، وأن يشكره على نعمائه ، باعترافه بأن الله قد خلق كل عضو فيه لغرض من الأغراض ، فلا يعطل اليد التى خلقها الله لتعمل ، ولا يمنع القدم التى أوجدها الله لتسير ، إلى غير ذلك ، مما يدعو إلى الصبر أو الشكر .

﴿ أو يوبقهن بما كسبوا﴾ أى يهلكهن، والهلاك قُصد به راكبوها ،ولكن التعبير القرآنى فيه شمول بأن الهلاك يحوى الناس وما يحمى الناس من مركب وسفن فذلك أشد فى الهلاك والإغراق ، وإرادة المبالغة والتهويل .

﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ هنا تشبيه ضمنى يفهم من سياق الآية . فكما لا مهرب لهم من الهلاك إذا عصفت الرياح وتلاطمت الأمواج وتعطلت السفن ، كذلك لا مهرب لهم من عذاب الآخرة .

﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى﴾ فمتاع الحياة الدنيا الزائل يقابل ثواب الآخرة الدائم، بل ثواب الآخرة خير وأبقى . وخير أفعل تفضيل على غير بابه ، فإن كان فى الدنيا خير وبقاء ، فإن فى الآخرة خيرا أكثر وبقاء أدوم .

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ فى تقديم الجار والمجرور مزيد اختصاص بأن التوكل على الله لا على غيره ، فلا يسندون أمرا إلا إليه ولا يعتمدون إلا عليه .

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ الكبيرة : هى ما أوجب الله عليه الحد فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، والإثم اسم جنس يراد به الآثام ، ولذا لم يقل كبائر الآثام إذ إن المعنى واحد، والإثم فيه خفة أكثر على اللسان من كلمة الآثام .

والفواحش نوع من الإثم ، ولكن لما كان لها مزيد اختصاص عطفها على الإثم إبرازا لشدة قبحها ، وفظاعة أمرها .

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ من صفات الذين آمنوا ، ومن صفات الذين يجتنبون كبائر الإثم وإذا لم يكن هناك تغاير بين صفات المؤمنين ، وبين الذين يجتنبون كبائر الإثم ، والذين يستجيبون لربهم ، فما وجه العطف إذن ؟ مع أنه من عطف الخاص على العام، أى بعض من كل ، وهو الذى يحتم على البلاغيين أن تأتى الجمل بعضها إثر بعض دون حرف عطف .

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أفرد الصلاة والمراد إقامة جميع الصلوات لا صلاة واحدة ، فهو من تعبير الجزء وإرادة الكل .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ كرر الضمير « هم » لإفادة التوكيد ، وقدمه على الفعل (ينتصرون) لمزيد من التأكيد حيث كرر الإسناد ، أي إسناد الفعل له مرة باعتباره خبرا ، وأخرى باعتباره فعلا للفاعل وهو واو الجماعة ، فهو تأكيد على تأكيد .

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ أى عقوبة مثلها ، إذ إن الله يجلُّ فعله عن السيئات وإنما أراد المشاكلة فى اللفظ حيث سبق لفظ السيئة ، فعبر بالسيئة توافقا مع لفظها السابق . ولفظ « مثلها » له دلالته الجديرة بالاعتبار ، إذا إن العقوبة لا تزيد على الجرم بأى حال من الأحوال ، بل حث على العفو؛ فالله لا يحب الظالمين ، ويمقت الظلم أشد المقت، ويتضح ذلك من خلال الآيات المتعاقبة في هذا المعنى كقوله : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

ويعلم أيضا أن الصبر على الأذى ، والغفران لمن يستوجب العقوبة أمر يصعب على النفس تحمله ، ويحتاج إلى مجاهدة من النفس شديدة، ولذلك يحث عليه فيقول : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾

الآيات : ٤٤ – ٤٨

أى : ومن يتركه الله على ما كان عليه من ظلم الناس ، فليس له من نصير يتولاه بعد خذلانه تعالى له ، ويمكنك أن ترى الظالمين المشركين العاصين عندما يرون العذاب فى الآخرة يتمنون العودة إلى الدنيا حتى يكفروا عن سيئاتهم ويعملوا عملا صالحا ، ولكن لا مفر من العذاب ، فقد أخذوا فرصتهم فى الحياة الدنيا ونبذوها ، وانظر إليهم حين يُعرضون على النار خاضعين بسبب مالحقهم من ذل وهوان يسترقون النظر إلى النار خوفا منها ، ومن ينظر إلى المكاره لا يقدر أن يملأ عينيه منها ولا يفتح جفنه عليها . فيقول عنهم المؤمنون : هؤلاء الذين خسروا

أنفسهم وأهليهم بتعريضهم للعذاب يوم القيامة. فيؤكد الله على قول المؤمنين : ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم أبدى يوم القيامة. فأين ما كانوا يعبدونهم ؟ ولماذا لا يكونون في نصرتهم ، ويرحمونهم من لفح جهنم ، وزفير النار . فمن حكم الله عليه بالضلالة فليس له سبيل إلى النجاة .

وأهل مكة ما زالت الفرصة مواتية لهم ، فإذا دعاهم الله إلى الإيمان على لسان نبيه ، ولم يؤمنوا ، فليس لهم مفر يلجئون إليه ويلوذون به من العقاب ، ولا يمكنهم إنكار ما اقترفوه من الشرك والظلم ؛ لأن كل شيء مدون بصحيفة أعمالهم ، وتشهد عليكم جوارحهم .

فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عن الدعوة ، فما أرسلناك عليهم رقيبا ومحاسبا لهم ، فليس عليك إلا تبليغ الرسالة ، وما عليك أن تهديهم إلى الإيمان .

ثم يتغلغل القرآن فى بيان نفسية الإنسان فى حالة الفرح وفى حالة الحزن . فإذا نال الصحة والغنى والأمن، فرح وأصابه البطر، وإذا حاق به بلاء من مرض وفقر وخوف كفر وجحد النبوة، واستعظم البلية، وزعم أنها أصابته بغير استحقاق لها .

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ مراعاة نظير بين الظلم والضلال ، فهما من شعبة واحدة . لأن المرء إذا جنح عن العدل ظلم ، وإذا جنح عن الهدى ضل .

﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ الاستفهام هنا للتمنى ، إذ فاتتهم الدنيا ويودون لو يعودون إليها فيعملون عملا صالحا يخفف عنهم عذاب يوم القيامة .

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ وهو من قلب الكلام والمراد تعرض النار عليهم لأن النار شملتهم والتصقت بهم فصار كل منهم معروضا على الآخر وداخلا فيه ، أى صارا كشيء واحد .

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي ينظرون بعيونهم ، والطرف وتحريك الجفن من لوازم العين فهو من المجاز .

وسمى الخاسرين ظالمين وختم بها الآية على سبيل التذييل وما فيه من توكيد فقال : ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ .

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ نكر ملجأ ونكير ، وقدم النفى فسلب عموم اللجوء وعموم إنكارهم لما فعلوا ، أى لا يمكنهم بأى حال أن يلجئوا إلى أحد ينصرهم ، أو أن ينكروا فعلتهم التى اقترفوها فى حياتهم من الشرك وتكذيب الرسول ﷺ.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ نفى عن الرسول صفة الرقابة والحفظ على أعمالهم ، وأثبت له صفة أخرى ليس له غيرها ، فليس عليه سوى التبليغ، أما الهداية والرقابة فليس من شأن الرسول ، فليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء، فالقصر هنا بالإضافة إلى محاسبتهم على أعمالهم والحفاظ عليها .

﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ سمى نعمة الله إذاقة ؛ لأن نعمة الله وإن كانت عظيمة فى الدنيا . إلا أنها بالنسبة إلى نعم الله فى الآخرة كقطرة من بحر ، فهى كالإذاقة بالنسبة للطعام .

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى بما اقترفته أنفسهم ، وذكر الأيدى هنا لأن أكثر الأعمال لا يقوم إلا بها وبسببها ، فهى من المجاز .

﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ الإنسان اسم جنس يعم جميع أفراد الإنسان ، فحكم على الجنس كله بأنه كفور ولكنه أراد أغلب أفراده وليس جميعهم .

وتأمل دقة التعبير القرآنى حين يذكر إذا فى مجال الرحمة ، وإن فى مجال السيئة فالعقوبة على السيئة أمر ليس محققا ولا مؤكدا ، لرحمة الله الواسعة التى يغمر بها عباده .

﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ بعد ما قال أولا ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ ﴾ فكان حق الكلام أن يقال فإنه كفور ، بالإضمار ، ولكنه الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بسمة الكفر ودلائل الجحود والنكران .

★ ★ ★

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

(الآيتان : ٤٩ ، ٥٠)

التصرف فى ملكوت السموات والأرض خاص بالله وحده ، وليس لأحد سواه ، وهو الذى يقسم النعم والبلايا على عباده حسب ما تقتضيه حكمته ، وليس لنا إلا الشكر على النعمة ، والصبر على البلية، والرضا والتسليم لكل ما يصيبنا من شر ، وما نجنيه من خير . وهو الخالق لما نعلم ومالا نعلم على أي صورة شاء . فيمنح بعضنا الإناث فقط كشعيب ولوط عليهما السلام ، ويهب لبعضنا الآخر الذكور فقط دون الإناث كما وهب إبراهيم عليه السلام ، وليس لنا أن نجادل أو نعترض ، لا على البنات ولا على الأولاد ، أو يهب لنا الذكور والإناث مثل ما وهب لنبينا محمد عليه السلام فقد كان له من البنين ثلاثة : القاسم ، وعبد الله ، وإبراهيم ، ومن الإناث أربع : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم، وفاطمة رضوان الله عليهن . كما يجعل منا العقيم فلا يلد ولا يولد له ، كعيسى ويحيى عليهما السلام ، إذ ليس لهما أولاد، فعيسى لم يتزوج ، وإن كان سيتزوج حين ينزل فى آخر الزمان ، ويحيى تزوج ولم ينجب والعقيم من النساء من لا تقبل ماء الفحل ، والعقيم من الرجال ما يكون فى مائه ما يمنع علوقه برحم المرأة . والله بليغ العلم بكل ما وقع وما سيكون ، بليغ القدرة فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُور﴾ قدم الإناث لتطيب قلوب آبائهن ، إذ فى التقديم تشريف لهن ، وأنس بهن ، ولذا جعلهن من مواهب الله سبحانه ولذا جعل فى تقديمهن توبيخا لمن كان يئدهن ويدفنهن أحياء ، كما اعتاد أهل الجاهلية كراهتهن فيقبرونها فى التراب وهي على قيد الحياة ، بل أراد لآبائهن أن يفرحوا بهن .

وجاءت « إناثا » بالتنكير إيماء إلى ضعفهن ليرحمهن الذكور ، فيحنون إليهن ، وفي الحديث القدسى ، خطابا للبنت حين ولدت : « انزلى وأنا عون لأبيك » وفى الحديث النبوى « لا تكرهوا البنات فإنى أبو البنات » .

﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُور﴾ عرف الذكور لجبر تأخيرهم عن البنات ، مع أنهم أولى بالتقديم ، فعرفهم تنويها بشأنهم ، فهم لا يخفون عليكم .

وعبر فى كل الصور بلفظ الهبة ، إلا أنه قال (ويجعل من يشاء عقيما) فلم يعبر بلفظ الهبة ؛ لأنه حرمان من الإنجاب ، ولله حكمة فى ذلك قد تخفى علينا ، إلا أنه عليم بها ويفعل ما فيه الحكمة ، ولذا قال : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِير﴾ .

★ ★ ★

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾

الآيات : ٥١ - ٥٣

أى وما صح لفرد من أفراد البشر يا محمد أن يكلمه الله بوجه من الوجوه إلا عن طريق الوحى ، والوحى هو ما تقع به الإشارة القائمة مقام العبارة. ويقال للكلمة الإلهية التى تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحى ، والوحى والإلهام شىء واحد فى الحقيقة ، وإنما قيل الوحى فى الأنبياء ، والإلهام فى الأولياء تأدبا .

ويكون الوحى بصور متعددة :

إما بإلقاء فى الروع كما ذكر عليه السلام أن روح القدس نفث فى روعى . وإما بإلهام نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (القصص : ٧) وإما بتسخير نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (النحل : ٦٨) أو برؤيا ، كقوله عليه السلام : « انقطع الوحى وبقيت المبشرات : رؤيا المؤمن .

ويكون المعنى حينئذ « إلا وحيا » أى إلا بأنه يوحى إليه ويلهمه ويقذف فى قلبه كما أوحى إلى أم موسى ، وإلى إبراهيم فى ذبح ولده ، وإلى داود الزبور فى صدره . أو بأن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه والصورة جاءت على التمثيل والتقريب ، كحال المحتجب الذى يكلم بعض خواصه من وراء حجاب ، فذلك من خواص الأجسام ، فالحجاب - إذن - يرجع إلى السامع لا إلى الله ، وهكذا كلم الله تعالى موسى فى الطوى وفى الطور، ولذا سمى

كليم الله ؛ لأنه سمع صوتا دالا على كلام الله من غير أن يكون ذلك الصوت معروفا لأحد من الخلق ، أو سمع كلام الله من غير واسطة صوت .

وقد يكون الوحى بإرسال ملك من الملائكة كجبريل عليه السلام ، ولم ير جبريل إلا أربعة من الأنبياء : موسى ، وعيسى ، وزكريا ، ومحمد . فيوحى ذلك الملك بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحى إلى الأنبياء ، فالله متعال عن صفات المخلوقين، وأفعه له لا تجرى إلا على سنن الحكمة ، وتارة يكلم بواسطة ، وتارة من غير واسطة .

وخلاصة القول : أن البشر لا يكون مستعدا أن يكلمه الله إلا بالوحى أو بالإلهام ، فى النوم أو فى اليقظة ، أو من وراء حجاب بالكلام الصريح ، أو يرسل رسولا من الملائكة فيوحى بإذنه ما يشاء .

وسئل رسول الله عن الكيفية التى يأتى إليه بها الوحى ، قال :

أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول .

تقول عائشة رضى الله عنها : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه – يذهب عنه – وإن جبينه يتفصد عرقا – أى يرشح بالعرق .

ويروى عن السيدة عائشة أيضا :

« من زعم أن محمدا رأى ربه ، فقد أعظم على الله الفرية » وتلت هذه الآية وما كان لبشر ... وكذلك أوحينا إليك ، كما أوحينا إلى سائر الرسل ، أوحينا إليك القرآن ، وهو للقلوب بمثابة الروح للجسد ، وسمى القرآن روحا لكونه سببا للحياة الأخروية . ولم تكن تعرف قبل أن يوحى إليك ، أي شيء هو القرآن ، ولا ما جاء به القرآن من تفصيل للإيمان الذى لا تهتدى إليه العقول من تلقاء نفسها ؟ ولكنا أوحينا إليك نورا تنظر فيه وتهتدى به ، وإنك لتهدى بهذا النور وترشد من تشاء هدايته، إلى الدين الحق ، دين الإسلام ، وهو دين مستقيم لا عوج فيه ، لأنه منزل من قبل الله الذى خلق الكون كله وملكه ويتصرف فيه كيفما يشاء ، وأضاف الصراط

إلي لفظ الجلالة لتفخيم شأن الدين ، وتقرير استقامته ، وتأكيد وجوبه ، فكل شيء يعود إلى الله ، لا إلى غيره ، وتصير الأمور إليه لا إلى أحد سواه .

وفي ذلك من الوعيد للضالين والوعد للمهتدين بما لا يخفى على الناظر ، والله أعلم .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾ سمى الوحى وحيا لسرعته ؛ فإن الوحى عين الفهم ، وعين الإفهام ، وعين المفهوم منه ، كما يأتى الوحى أهل الإلهام من الأولياء .

﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كناية عن سماع كلام الله دون رؤيته ، فالله ليس جسما حتى يستتر بحجاب .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ كناية عن جبريل عليه السلام .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ شبه الإيحاء إلى سائر الرسل ، بالإيحاء إلى محمد عليه السلام .

واستعار الروح للقرآن ، لما بينهما من مشابهة ، فالقرآن للقلوب بمنزلة الروح للجسد ، لا بقاء له إلا بها ، فإذا تخلت عنه ، فقد قضى نحبه ، إذ لا حياة للجسد إلا بالروح ، كما لا حياة للإنسان إلا بروحه .

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ الرسل كانوا مؤمنين قبل الوحى ، معصومين من الكبائر والصغائر قبل البعثة وبعدها، فضلا عن الكفر ، وإنما كان لا يعرف القرآن قبل الوحى ولا شرائع الإيمان ومعالمه ، أي الإيمان الشرعى المتعلق بتفاصيل الأحكام .

يقول ابن قتيبة : لم تزل العرب على بقايا دين إسماعيل من الحج والختان والنكاح ، وإيقاع الطلاق، والغسل من الجنابة ، وكان عليه السلام على ما كانوا عليه

فى مثل هذه الشرائع، وكان يبغض اللات والعزى ، ويحج ويتبع شريعة إبراهيم عليه السلام ويتعبد بها حتى جاءه الوحى وجاءته الرسالة .

﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا ﴾ استعار النور للقرآن ؛ لأن القرآن يستضاء به ونهتدى على نبراسه ، فتشرق القلوب بعد ظلامها .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ استعار الصراط المستقيم للدين وشرائعه وأحكامه ، فهى مستقيمة لا عوج فيها .

وجملة « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » جاء بعد الجملة التى قبلها دون عاطف ، لأنها هى نفس الصراط المستقيم ، فلا تحتاج إلى عطف ، إذ هى بدل منها .

﴿ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾

وأضاف الصراط إلى الله ، ووصفه بالاسم الموصول وجملة الصلة « الذى له » لتفخيم منزلة الدين الإسلامى ، وتأكيد استقامته ، وبيان وضوحه ، وأن من سار فى هذا الطريق المضىء بالإيمان لا يضل ولا يشقى .

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ التنبيه بألا ، وتقديم الجار والمجرور يفيد تأكيد اختصاص الله بأن هذه الأمور كلها من شأنه وحده ، وليس لأحد أن يشاركه فيها أو ينفرد بها ، فإلى الله لا إلىٰ غيره تصير أمور الخلائق كلها في الدنيا والآخرة ، ولا يديرها إلا هو ، حيث لا يخرج أمر من الأمور عن قضائه وتدبيره .

★ ★ ★


سورة الزخرف



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑦ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾

الآيات: ١ – ٨

حم : إشارة إلى الإسمين الجليلين من أسمائه تعالى ، وهما الحنان والمنان .

فالحنان : هو الذى يقبل علي من أعرض عنه .

والمنان : هو الذى يبدأ بالنوال قبل السؤال .

وعطف « الكتاب » على « حم» بواو العطف ؛ لأن مدار العطف المغايرة في العنوان وهذا الكتاب بين طريق الهدى من طريق الضلال ، الموضح لكل من يحتاج إليه فى أبواب الديانة ، من خير وشر ، وسعادة وشقاء ، فهو مبين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم ، ولذا صيرناه عربيا ولم نصيره أعجميا بإنزاله بلغة العجم فلا يفهمونه وسبب نزوله بالعربية ، كونكم تفهمون مضمونه وما فيه من تعاليم ، وتحيطون بما فيه من النظم الرائق ، والمعنى الفائق ، وتعرفون حق النعمة فى ذلك ، حتى تنقطع أعذاركم بالكلية .

هذا القرآن كان مثبتا فى اللوح المحفوظ، فهو أصل الكتب السماوية كلها ، وبه ثبتت ثم أخذت منه ، ولذا سمى اللوح المحفوظ أم الكتاب ، وأراد بالكتاب الجنس أى الكتب جميعها .

وهذا القران رفيع القدر بين الكتب ، شريف المكانة ، أحكامه لا يتطرق إليها نسخ بكتاب آخر ، ولا تبديل فيه ولا تغيير .

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ وبعد أن بين منزلة القرآن وعلو شأنه ، وأكد إنزاله بلغة العرب ليعقلوه وليؤمنوا به ويعملوا بموجبه ، أنكر عليهم أن يكون الأمر بخلافه ، فقال متوعدا لهم ، أنهملكم أيها المعاندون فننحى القرآن عنكم ، ونترك الأمر والنهى ، والوعد ، والوعيد ، ونترككم عبثا ، ونطردكم من رحمتنا ، وشبههم بضرب الغرائب ، وإبعادها أن ترد الماء ، فالإبل إذا أرادت الماء ووردته ودخلت بينها ناقة غريبة من غيرها طردت عن الحوض ، فهل تريدون أن نبعدكم عن الرحمة ونطردكم عنها ونخلى بينكم وبين أنفسكم ، لا تنالون شيئا من الفضل ، لإعراضنا عنكم ؛ لأنكم أسرفتم فى المعاصى ، وانهمكتم فيها ، وأصررتم عليها لكنا لسعة رحمتنا ، لا نترككم لتخلدوا فى النار ، بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين ، وإنزال الكتاب المبين .

وقد سبق أن أرسلنا كثيرا من الرسل إلي الأمم السابقة والقرون الماضية ، يدعونهم إلي الدين الحق ، فكان من عادتهم التكذيب والاستهزاء بهم ، فلا ينبغى لك أن تتأذى يا محمد من قومك ، بسبب تكذيبهم واستهزائهم ، لأن المصيبة إذا عمت خفت ، وقد أهلكنا من هم أشد بطشا وقوة من كفرة قريش ، وأخذناهم بالشدة والهلاك ، وصاروا عبرة ومثلا لغيرهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد ذكر القران قصصهم غير مرة ، وذلك بأنهم وإن بالغوا فى إظهار أوصافهم الذميمة وأخلاقهم اللئيمة بالاستهزاء بالأنبياء والاستخفاف بالمرسلين ، حتى إنهم كذبوهم وسعوا فى قتلهم، فهذا دأبهم وتلك عاداتهم فى كل زمان مع ورثة الأنبياء من العلماء والمصلحين ، والمشايخ الناصحين الداعين إلى الله ، والهادين لهم ، إلا أن الله لم يقطع فيض رحمته عليهم ، فكان يبعث إليهم الأنبياء ، وينزل عليهم الكتب ، وينعم

عليهم بعفوه وغاية فضله وإحسانه تأديبا وترهيبا ، فأهلك المتمادين في الباطل ليعتبر من جاء بعدهم ، فلا يحذو حذوهم .

* * *

الأسرار البلاغية :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أكد أن القرآن نزل بلسان عربي ، وليس بلسان أعجمي ، فاستعمل أداة التوكيد ، ونكر « قرآنا عربيا » دلالة على تشريفه وتعظيمه ، « ولعلكم » تستعمل فى الأصل للرجاء ، وهو غير مراد هنا ؛ إذ لا يليق بجلاله أن يرجو تعقلهم وتفكرهم ؛ لأن الرجاء يختص بمن يجهل عواقب الأمور والله منزه عن ذلك ، ولكنها مستعملة للتعليل والسببية مجازا ، أى جعلنا القرآن عربيا لكى تتعقلوا وتتدبروا ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ مجاز عن اللوح المحفوظ باعتبار أن جميع الكتب مودعة فى طياته ، كما تودع الأجنة فى بطن الأم .

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الهمزة هنا للإنكار ، فهذا التعبير استعارة تمثيلية، حيث شبه تنحيتهم عن الذكر ، بتنحية الناقة الغريبة عن ورود الماء ، وإبعادها عن الشرب والروى ، فاستعار إبعاد الله الكافرين عن فيض رحمته ، لإبعاد الناقة الغريبة عن الماء . وصفحا « أى إعراضا عنكم ، وعن الانتقام منكم ، وسمى العفو صفحا ، لما فيه من معنى الإعراض عن الانتقام ، فهو من صفحة الوجه ، ومن أعرض عنك فقد أعطاك صفحة وجهه .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي ما من نبى أتاهم ودعاهم إلى الحق إلا استهزءوا به ، ولم يصنعوا معه شيئا سوى الاستهزاء أو ما يدل علي عدم الاكتراث ، فهو أسلوب تخصيص ، أى أثبت لهم الاستهزاء بالرسل ، ونفى عنهم ما عداه من التوقير والاحترام .

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أسلوب فيه معنى التهديد ، والبطش : تناول الشيء بصولة والأخذ بشدة ، تهديد لقريش ، فالذين هلكوا أشد من قريش ، ومن يقدر على إهلاك الأقوى قادر على إهلاك الأضعف ، وفى ذلك وعد لرسول الله بالنصرة وانتشار الدين .

* * *

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾

الآيات: ٩ - ١٤

أى : إن سألت قريشا قومك من الذى خلق الأجرام العلوية والسفلية ؟ قالوا اعترافا بالصانع الخالق ، خلقهن العزيز فى حكمه وملكه ، العليم بأحوال خلقه ، وجاءت العبارة عن الله بالعزيز العليم ، ليكون ذلك توطئة لما ذكره من أوصافه بعد ذلك وهى أنه جعل الأرض مسكنا لكم تقعدون عليها وتنامون وتتقلبون فيها كما يتقلب أحدكم على فراشه ومهاده ، وجعل لكم فيها طرقا تسلكونها فى أسفاركم لأمور دينكم ودنياكم ، طرقا سهلة وليست وعرة لكى تهتدوا لسلوكها إلى مقاصدكم.

وهو الذى نزل الماء من السماء بمقدار ووزن ينفع العباد والبلاد ولا يضرهم هذا الماء أنبتنا به الأرض القاحلة الجرداء فكأنما حييت بعد فناء ، وكما استطاع أن يحيى الأرض بعد موتها ، فهو مستطيع أن يحييكم أيها الخلق بعد مماتكم ، ولذا عبر بقوله كذلك تخرجون ، والإخراج أسهل وأهون لأمر البعث .

وهو الذى خلق أصناف الموجودات بأسرها ، وهيأ لكم الفلك الجارية فى البحار ، ووطأ لكم الأنعام والدواب لتستووا على ظهورها ، وتذكروا نعمة ربكم عليكم، وتحمدوه عليها بقلوبكم وألسنتكم ، وتقولوا متعجبين : سبحان الذى سخر لنا هذا المركوب ، وما كنا له مطيقين بتذليلها ،واستئناسها ، لو اعتبرتم بكل هذه النعم ، لأكدتم لأنفسكم أنكم راجعون إلي ربكم بالموت ، والبعث بعد الموت .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا ﴾ المهد :المكان الممهد الموطأ كالفراش لعلكم تستقرون فيها ، فشبه الأرض بالمهد فى كونها سكنًا وراحة وملاذا لمن يعيش عليها من الناس.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ الإحياء بعد الموت بالنسبة للأرض، كالحياة بعد الموت بالنسبة للخلق، فمثل ذلك تبعثون من قبوركم ، فشبه إحياء الناس بعد موتهم بإحياء البلدة الميتة ، فالتعبير أولا بقول الله تعالى ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ تعبير مجازى أراديه الحياة بعد الموت ، وشبه ثانيا البعث بعد الموت للخلق ، بإحياء الأرض بعد موتها . فهذا مثل ذلك سواء بسواء.

وفى الآية إشارة إلى أن الله نزل من سماء الروح ماء الهداية فأحيا به بلدة القلب الميت ، كذلك يخرج العبد من ظلمات أرض الوجود إلى نور الله ، مثل البذور ما لم تزود بالمطر ، ويدخل الماء إلى جوف الأرض ، لم يظهر النبات على سطح الأرض ، فكان الفيض سبب النور .

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ قدم الفلك على الأنعام ؛ لأن الفلك أدل على القدرة الباهرة والحكمة البالغة من الأنعام .

وقدم الفلك والأنعام على ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ للمحافظة على الفاصلة النونية .

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ الظهر فى الأنعام حقيقة ، وفى الفلك مجاز ، ولكنه عبر بالظهر للتغليب ، أى تغليب الأنعام على الفلك .

﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أى تذكروا نعمة ربكم بقلوبكم ثم تحمدوه عليها بألسنتكم ، ففى الكلام إيجاز واختصار .

﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي قادرين على ضبطها وتذليلها فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته وحكمته مما يستوجب علينا شكره .

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ أى راجعون على سبيل اليقين والجزم ، يفيد ذلك القطع أسلوب التأكيد الواضح بذكر إن واللام التى جاءت فى خبرها .

* * *

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

الآيات: ١٥ - ٢٥

أى جعلت قبائل العرب الملائكة بنات الله ، قالوا إن الله صاهر الجن فولدت له الملائكة . وقالوا إن الملائكة إناث ،والبنت فى رأيهم أقل درجة من الذكر ، ولذا يأنفون من ولادتها ، وتسود وجوههم حسرة إذا بشروا بالبنت ولم يبشروا بالذكر ، وهكذا يبدو الإنسان ظاهر الكفر مبالغًا فيه . وقد أنكر الله عليهم أن يصطفوا

أنفسهم بالبنين ، ويتركوا البنات له ، أليس هذا داعيا للتعجب من شأنهم وإنكار أحوالهم ، أليس لكم شيء من التعقل ونبذة من الحياء حتى اجترأتم وادعيتم أن الله آثركم على نفسه بخير الصنفين ، وأعلاهما شأنا ، وترك لنفسه شرهما وأدناهما مكانة ، فالبنات كانت بغيضة لدى الآباء ،ولو كان إيثارهم بالبنين ، وإيثار نفسه بالبنات لكانت حال الخلق أفضل من حال الخالق جل شأنه .

وإذا بشر أحد المشركين بولادة البنت صار وجهه أسود كئيبا من سوء ما بشر به ، ولذا إذا رأى فى منامه أن وجهه أسود ،ولدت له بنت ، وامتلأ غما وكآبة ، يقال رجل مكظوم ، أي مكروب .

كما أنكر الله على المشركين أن يجعلوا ما من شأنه أن يربى فى الزينة وهو عاجز عن أن يتولى أمر نفسه ، وهو فى الخصام والجدال الذى لا يخلو منه عادة غير قادرين على الإفصاح والإبانة ؛ لنقصان عقله وضعف رأيه ، وهذا بحسب الغالب ، وإلا فمن الإناث من هو أهل للفصاحة والبلاغة ، ومنهن من هى أفضل من الرجال كالسيدة عائشة رضى الله عنها . وجعلوا الملائكة هم أكمل العباد ، وأكرمهم على الله أنقصهم رأيا وأخَسّهم صنفا فى نظرهم وفى ذلك البيان لكفرهم وتقريعهم على هذا الزعم والوهم ، فهل حضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثا حتى يحكموا بأنوثتهم ، وهو تجهيل لهم وتهكم بهم، فإنما هم سمعوه من آبائهم ، وآباؤهم جاهلون كذابون . وما زعموه من كون الملائكة إناثا سيكتب فى صحيفة أعمالهم ويسألون عنها يوم القيامة ، فالله يتوعدهم بمصيرهم يوم الدين ، وسوف تكتب هذه الشهادة الكاذبة على وجه اليقين ، مما يدعوه إلى شدة الوعيد لهم .

ثم جنحوا إلى زعم آخر وهو أن عبادتهم للملائكة كانت بإذن الله - سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا - وعن رضاه ، وهم يفعلون ذلك بمشيئة الله ، إذ لو شاء الرحمن عدم عبادتنا للملائكة ، ما عبدناهم ، ولكنه شاء فعبدناهم ، فما قالوه لا يستند إلى علم ، ولا يعتمد على دليل ، وما هم إلا يكذبون ، ويقولون ذلك على سبيل الظن والتخمين .

والله يقارعهم الحجة بالحجة ، يقول لهم : هل آتيناكم كتابا من قبل القرآن

ينطق بصحة ما تدعونه من عبادة غير الله ، وكون الملائكة بنات الله ، فيعولون عليه ويتمسكون به ، فهم لم يأتوا بحجة عقلية ، أو نقلية ، بل اعترفوا أن لا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة ، مثلهم .

والتمسك برأى الآباء وتقاليدهم من شيم الناس الذين يتصفون بالجهل وعدم التفكر ، فما أرسلنا فى قرية من القرى من نبى ينذر قومه بعذاب إذا استمسكوا بكفرهم ، إلا قال جبابرتها وسادتها إنّا وجدنا آباءنا على سنة وطريقة ودين ، وليس لنا أن نخالفهم فى سننهم وأعمالهم ودينهم ، فهم يتمادون فى نعيمهم وشهواتهم ، ويبالغون فى النفرة من الدين الذى بشرهم به الرسول بحجة التمسك بدين الآباء ، ولا يفكرون بنعيم الآخرة وثوابها ، وما وعد الله به المؤمنين من جنات وعيون وزروع ومقام كريم .

ثم يقول لهم القرآن وهو يرخى لهم العنان بالحجة تلو الحجة ، إذا جئتكم بدين هو أهدى من دين آبائكم وأرشد لكم من هذه الضلالة التى ورثتموها عن أسلافكم أتأخذون به وتتركون ما أنتم عليه ؟ قالوا متهكمين : إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه ، مصممون على تقليد آبائنا فى تسميته كفرا وضلالا .

وبعد أن يئس الرسول من إيمانهم ، ولم يبق لهم عذر أصلا ، بعد ما ساق إليهم الحجة بعد الحجة حتى يتفكروا ويتدبروا ويؤمنوا بالدين الجديد والنبى المرسل أنتقمنا منهم بأشد أنواع الانتقام ، فلا تكترث يا محمد بتكذيب قومك فإن الله سينتقم من كفار قريش انتقامًا مروعًا ، فهو القاهر القادر القابض الذى لا يفوته شىء .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ أى أبل اتخذ . فالهمزة للإنكار والتوبيخ والتعجب من شأنهم .

ونكر البنات لتحقير شأنهن ،. وعرف البنين لفخامة شأنهم .

وقدم البنات على البنين ، مع أنهن أقل شأنا - فى زعمهم - لنسبتها إلى الله تعالى ، فكان ذلك أهم حيث إن المقام يستدعى التقديم ، لإقامة الحجة لهم على الله ، بنسبة الأقل شأنا له .

وخاطب المشركين بقوله : ﴿ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ على سبيل الالتفات لتشديد الإنكار والتوبيخ لهم .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، بعد ما قال (وأصفاكم) بالخطاب ، قال (أحدهم) بالغيبة ، إعراضا عنهم ، وذكر قبائحهم التى ينبغى عليهم أن يخجلوا منها . « ومثلا » كناية عن البنات .

﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ ظل تستعمل فى الشىء الدائم نهارا ، فكانت طباقا خفيا مع قوله « مسودا » ويمكن أن يكون فيه معنى التشبيه حيث شبه الوجه المكفهر بالسواد لقبح ما نبىء به من خلفة البنات ، وعبر عنها بظل دون غيرها لتفيد دوام حالة الوالد على هذه الصورة القبيحة من الكآبة .

﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ تكرير الاستفهام يفيد تكرار الإنكار واستقباح الواقع وانظر إلى التضاد بين النشأة فى الزينة ، وبين كون اللسان قريبا من العجمة لا يكاد يفصح ولا يبين ، فوصفت المرأة بصفة حسنة ترافقها صورة شائهة بكماء خرساء من القدرة على التعبير وإقامة الدليل لنقص فى عقلها ، وضعف فى تفكيرها .

﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ إنكار لرؤيتهم للملائكة ، ومشاهدتهم إذا كانوا ذكرانا أو إناثا ، فهل اطلعوا عليهم ؟!

﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ غاية فى الوصول إلى التهديد ، فستكتب شهادتهم على وجه التحقيق ، حتى لا يكون سبيل إلى الإنكار . ومن الذى سيكتب هذه الشهادة، إنهم الملائكة المكلفون بالكتابة ، الذين يدعون أنهم إناث ، ويسألون عما قالوه ، فيعاقبون على هذه الفرية .

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ فهذا دليلهم على عدم عبادتهم ، فالله لو أراد عدم عبادتنا لهم لمنعنا من ذلك ، لكنه لم يرد ، فنحن مستمرون فى عبادتنا

لهم، ، نلمح فى هذا الأسلوب شيئا من السخرية بالرسول والمؤمنين ، فيقدمون لهم الحجة على صحة عبادتهم ، ولكن الله يرد عليهم زعمهم بأنهم كاذبون مالهم بذلك من علم ، هذا ما يسمى بالمذهب الكلامى ، القائم على سوق الأدلة والرد عليها .

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أسلوب قصر واختصاص ، أى وصفهم بالكذب ونفى عنهم كل صفة أخرى دون الكذب ، فكأنهم خلقوا من الكذب ؛ لأنه أبرز صفاتهم فى هذا الادعاء .

ويأتى بدليل آخر بعد الدليل الأول فى كفرهم وعنادهم للرسول ووصفهم الملائكة بالإناث .

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ فالاستفهام هنا أيضا للإنكار. ونكر « كتابا » أي نوع من الكتب ، وليس كتابا معينا ، حتى يتمسكوا به ، ومستمسكون تدل على التشبث به ، حتى إنهم لا يريدون أن ينفكوا عنه بحال من الأحوال فزيادة حروف « مستمسكون » عن « ممسكون » مثلا دليل علي إصرارهم فى تمسكهم بهذا الكتاب المزعوم ، فهو أسلوب فيه تهكم بالمشركين ، واستهزاء بحالهم.

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ الأمة الدين والطريقة التى تؤم وتقصد (وإنا على آثارهم مهتدون) قدم الجار والمجرور ليبين اهتمام المشركين باقتفاء آثار الأسلاف ، وهى أهم عندهم من كل شىء فلا يخرجون عنها ، وعبر بعلى لتضمن مهتدون معنى ثابتون .

﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أسلوب قصر أداته النفى والاستثناء ، ما أرسلنا ... إلا قال ، أى كان هذا شأنهم وتلك عادتهم كلما أرسلنا إليهم رسولا قالوا : إنا علىٰ آثار آبائنا مقتدون .

« من نذير » من هنا زائدة لتفيد توكيد معنى الرسول المنذر لقومه، وتكذيبه ونكر « قرية » للعموم ، أى نرسل الرسول إلى أى قرية من القرى إلا قالوا ذلك .

﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ لفظ مترفوها يندرج تحته كل ما تشمله هذه الصفة ، من الأغنياء والرؤساء والجبابرة وأصحاب الشأن ممن أبطرتهم النعمة واستخفهم

العيش،وشغلتهم زينة الحياة ، وأبعدتهم عن ثواب الآخرة ، ويدخل فيهم كل من تمادى فى الشهوة ، ويالغ فى النفرة من الدين ورسل الله . فهذا أسلوب موجز شديد الإيجاز ، عبرت كلمة واحدة .. مترفوها » عن هذه المعانى كلها .

وقدم القرآن لهم ذريعة أخرى علها تنتشلهم من هذا التجديف والإلحاد ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ ثابتون على ما نحن فيه ، كافرون بما جئتم به ، ثابتون على دين آبائنا وأجدادنا وأسلافنا ، كافرون بما تدعون إليه عبادة الله وحده ، والإيمان برسوله ، وهو بشر مثلنا .

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ طلب منا النظر على سبيل الفطنة والاعتبار ، حتى نتجنب هذا الانتقام الذى كان جزاء الكفار ، وانظر أيضا التعبير بالفاء دون غيرها من حروف العطف ، لحثنا علي ما يجب علينا أن نعتبر به ونأخذ فيه دون هوادة أو تراخ ، أى ننظر فى عاقبة هؤلاء المكذبين فنسارع في الاعتبار ، والابتعاد عما من شأنه أن يكون سببا فى انتقام الله منا ، وذلك بالرجوع إلى الإيمان بالله ورسوله .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

الآيات : ٢٦ - ٢٨

الأسرار البلاغية :

أى اذكر يا محمد لقومك من قريش وقت قول إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من النار لأبيه آزر الذى كان يعمل بنحت الأصنام ، ولقومه الذين يعبدون الأصنام تقليدا لآبائهم ، قال لهم إننى برئ من عبادتكم لغير الله من الأصنام إلا أننى أعبد الله الذى خلقنى فإنه على وجه التأكيد سيهدينى إلى اليقين والصواب .

وبراء مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع تقول :إنا براء ، ونحن براء ، وفطرنى من الفطر ، وهو الخلق على غير مثال سابق ، تقول فطرت البئر ، إذا أنشأت حفرها من غير أصل سابق .

وهكذا جعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد باقية فى ذريته تتوارثها الأجيال ، جيلا بعد جيل ، ونسلا وراء نسل ، يعبدون الله ويوحدونه ويدعون إلى توحيده ، ورجاء أن يرجع إلى التوحيد من أشرك منهم بالله سبحانه .

والعقب مؤخر القدم ، استعير للذرية والأولاد لأنهم يخلفون الرجل فى حياته وبعد مماته ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وطبعى أن ليس كل من أشرك يعود إلى الإيمان ، ولكن القرآن عبر بالجميع وأراد البعض ، « لعلهم يرجعون » فلم يرجع جميعهم ، وإنما رجع بعضهم .

* * *

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

الآيات: ٢٩ - ٣٢

أضرب عن الكلام السابق ، أى لم يحصل ما رجاه إبراهيم من أن يظل الإيمان عالقا بقلوب ذريته ، ولكن الله أمد فى أعمار أهل مكة، وآبائهم ، وأغرقهم فى نعيمه فاغتروا بالمهلة ، وانهمكوا فى الشهوات وشغلوا بها عن التوحيد ، إلى أن جاء الرسول بالقرآن، وهو معجزة ظاهرة باهرة ، جاءهم الرسول لينبههم عما هم فيه من الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ، ازدادوا كفرا وعتوا ، وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به ، قالوا عن القرآن إنه سحر وكفروا به؛ لأنه يظهر الباطل فى صورة الحق ، فأهل الأهواء والبدع ينظرون إلى الحق وأهله كمن ينظر إلى السحر والساحر ، ويتشدقون بكلمة الكفر .

إن كان القرآن صدقا والرسول حقا فلِمَ لَمْ ينزل هذا القرآن على رجل من إحدى القريتين : مكة أو الطائف، رجل عظيم بماله ونفوذه وعزوته كالوليد بن المغيرة الذى كان يقطن مكة ، أو عروة بن مسعود الثقفى الذى كان يقطن الطائف ، فلو كان القرآن حقا وصدقا لنزلَ على أحد هذين الرجلين ، لأن الرسالة منصب جليل لا يليق به إلا رجل عظيم من حيث الجاه والمال ، ولم يعرفوا أن العظيم هو من عظمه الله وأعلى من قدره ، وليس من عظمه الناس؟ إذ رُبَّ عَظيم عند الناس حقير عند

الله ، والعكس صحيح ، وإذا كان القرآن قد نزل على محمد ﷺ فلابد أن الله قد اختاره لتعظيمه ورفعة شأنه وعلو قدره .

فالله سبحانه ينكر على مشركى قريش جهلهم بحكمة الله . ويعجب الناس من جهلهم بقسمة النبوة ، ووضعها حيث يشاءون هم ، وكأن بيدهم مفاتيح النبوة ، ولمن تكون ، أما نحن فهم يعتقدون أن لا شأن لنا بالنبوة وبإرسال الرسل ، نحن الذين هيأنا لهم أسباب معيشتهم ، بل قسمناها بينهم ، وجعلنا قوام حياتهم فى أيدينا ووزعناها بحكمتنا ومشيئتنا ، ولو وكلناهم بهذه القسمة لعجزوا عنها وعن تدبيرها، فنحن الذين نقسم الأرزاق والمعايش وليس غيرنا ، وإذا كانت قسمة الأرزاق فيما بين الناس أدنى من الرسالة ووضعها فى مكانها اللائق ، لم نترك اختيارها وتوزيعها إليهم، وإلا ضاعوا وهلكوا ، فما ظنك بأمر الدين ، فكيف نفوض اختيار ما هو أعظم وأفضل وهو الرسالة إليهم ؟!

ورأينا بحكمتنا أن نرفع بعض الناس فى الرزق والمعاش على بعض ، على حسب ما تقتضيه الحكمة ، فمن ضعيف وقوى ، وفقير وغنى ، وخادم ومخدوم ، وحاكم ومحكوم ، ليستعمل بعضهم بعضا فى مصالحهم ، ويسخر الأغنياء بأموالهم الفقراء بأعمالهم ، فيكون بعضهم سببا لبعض فى المعاش ، هذا بماله ، وذاك بعمله، فيتم قوام العالم .

وعلى الرغم من هذا كله فالنبوة التى وضعها الله فى بعض خلقه ، وما يتبعها من الرحمة وسعادة الدارين ، خير لمن توضع فيه مما يجمع هؤلاء الناس من حطام الدنيا الفانية ، والعظيم حقا هو من رزق تلك الرحمة العظيمة ، وليس من جمع كنوز الدنيا الحقيرة .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ . أشار بهؤلاء لأهل مكة ، فهم معاصرون للرسول ، ليسوا أباعد عنه . « والحق » كناية عن القرآن الكريم ؛ لأنه حق كله ، وليس فيه شيء من الباطل، ونكر « رسول » ووصفه بمبين ، إرادة تعظيم الرسول ، وبيانه لماجاء به من التوحيد .

﴿ قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ « هذا سحر » إشارة للقريب وتنكير سحر يفيد ، أن ما جاء به محمد شأنه حقير فى متناول الناس والأيدى فعبر بالإشارة ، وهو سحر لا يرقى إلى مستوى عظيم ، بل هو حقير فى ذاته ، ونحن كافرون به ، يؤكدون كفرهم به وإنكارهم له بإن واسم الفاعل « كافرون » ، أى مداومون على الكفر مستمرون فيه ، ولن نتركه إلى غيره مما يدعونا إليه محمد .

وقد أرادوا أن يضعوا مقاييس نظام العالم فى أيديهم يتحكمون بها ويتصرفون فيها حسب أهوائهم ، فإذا كان القرآن عظيما كما يزعم محمد ونزل من عند الله حقا ، فلم لم ينزل على رجل يوصف بالعظمة والمكانة ، والعظمة التى يريدونها تتفق مع اهتماماتهم الهابطة من أموال وسلطان يفنى ولا يبقى منه شىء .

ولم يسموا القريتين باسميهما لشهرتهما عند الناس وهما مكة والطائف، يقول بعض المفسرين ، المراد برجل من القريتين هو عروة بن مسعود ؛ لأنه كان يسكن مكة والطائف جميعا، وكان له فى مكة أموال يتاجر فيها ، وله فى الطائف بساتين وضياع يتردد عليها، فصار كأنه من مكة والطائف جميعا .

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ والتعجب من أحوالهم وإرادتهم فى القسمة بحسب أهوائهم .

والمراد برحمة ربك ، أى النبوة ، والرحمة حالة فى النبوة فهو تعبير مجازى .

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ لا غيرنا ، قدم الضمير « نحن » لإفادة التخصيص

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ نكر درجات هنا للتنويع بين درجات كبيرة ودرجات ضئيلة ، فبين الناس تفاوت قد يكون عظيما وقد يكون ضئيلا .

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ والنبوة التى يمنحها الله البشر أفضل وأعز عنده من كل متاع الدنيا ، فالنبوة ومتاع الدنيا يشتركان فى الخيرية ، ولكن خيرية الدنيا لا تدوم ولا تبقى فهى فانية صغيرة وخيرية النبوة دائمة ثابتة فهى خالدة عظيمة .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

الآيات: ٣٣ - ٣٩

أى : ولولا كراهة أن يميل الناس إلى الكفر ويرغبوا فيه ، إذا رأوا الكفار فى سعة وتنعم ؛ لحبهم الدنيا ، وتوهم أن تلك الفضيلة بسبب الكفر ، فيجمعوا على الكفر ، ويكونوا أمة واحدة ، لولا ذلك لجعلنا لحقارة الدنيا وهوانها عندنا لهؤلاء الخلائق وهم شر العباد جعلنا بيوتهم التى يسكنونها سقفا متخذة من فضة ، - الناس - وجعلنا مصاعدها من فضة أيضا يعلون عليها ، وأبواب هذه البيوت ومداخلها ، وأسرتها التى يجلسون عليها مسرورين معتمدين لا يشغلهم شاغل عن هذه النعمة ، كل ذلك من فضة بيضاء نقية تسر النفوس وتجلب البهجة للقلوب ، من فضة مموهة بالذهب والزينة المزخرفة ، أو بعض ما يتمتع به من فضة وبعضه من ذهب ، ليملأ الصدر انشراحا وجمالا ، وما كل ذلك إلا لمتاع الحياة الدنيا ، أما الآخرة ونعيمها فهى مقصورة للمتقين عن الكفر والمعاصى .

وقد يطرح فى هذا المقام سؤال : إذا كان فتح أبواب النعم على الكفار سببا

لاجتماع الناس على الكفر ، فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سببا لاجتماع الناس على الإسلام ؟

وإجابة على هذا السؤال : كان الناس يجتمعون - إذًا - على الإسلام لطلب الدنيا، وهذا إيمان المنافق وليس إيمان المؤمن ، فكان من الحكمة أن يضيق الأمر على المسلمين حتى إن كان من دخل فى الإسلام إنما يدخل لطلب رضا الله ، فيعظم ثوابه ، بسبب الإخلاص والنية ، وليس بالتهالك على فتنة الحياة الدنيا .

أما من يتعامى عن القرآن ، وهو مصدر الرحمة ، دون أن يكون فى بصره آفة تمنعه عن الإعراض والتعامى نسلط عليه قرينه من الشياطين ، هذا القرين يستولى على المعرض ، يصاحبه ولا يفارقه ، ولا يزال يوسوس له ويفرقه ، ويزين له العمى على الهدى . والقبيح على الحسن ، وذلك كما يقول على كرم الله وجهه : الشهوة والغضب يغلبان العقل والعلم ، وهذا جزاء من أعرض عن متابعة القرآن ، ومتابعة السنة .

هؤلاء الشياطين الذين قيضوا لقرنائهم من الإنس يمنعونهم عن الطريق الواضح الذى من حقه أن يسلك ، وهو الطريق الذى يدعو إليه القرآن والرسول ، ولكن هؤلاء المعرضين يظنون أن شياطينهم يهدونهم إلى الطريق السوى ، وإلا لما اتبعوهم ، ويستمرون على هذا الضلال حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة ، قال مخاطبا إياه ليت بينى وبينك بعد المشرق عن المغرب ، فبئس القرين أنت فى الدنيا ، وبئس الصاحب الآن فى الآخرة . ولكن الله يقول لهم موبخا ومؤنبا : لن ينفعكم اليوم هذا التمنى من البعد بينكم وبين شياطينكم ، حيث إنكم ظلمتم أنفسكم فى الحياة الدنيا باتباعكم إياهم فى الكفر والمعاصى ، فكما اشتركتم فى نعيم الدنيا ، فمن حقكم أن تشتركوا فى عذاب الآخرة .

★★★

● **الأسرار البلاغية .**

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ من شأن « لولا» انتفاء الجواب لوجود الشرط ، أى انتفاء الثانى لوجود الأول أى لولا مخافة أن نمتع الكافرين بزينة الحياة وزخرفتها ،

فيدخل الناس جميعا فى الكفر بسبب هذا التنعم ، لفعلنا ذلك ، ولكننا لم نفعل ذلك، ولم نمتعهم بهذه البيوت ذات الأسقف الفضية ، والسلالم الذهبية حتى لا يجتمع الناس على الكفر .

﴿مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ نكر فضة ومعارج ؛ لإبرازها فى صورة عظيمة ذات شأن كبير ، وفخامة تخطف الأبصار، وقدم « عليها » على الفعل يظهرون ؛ لاهتمامهم بأنفسهم خاصة وأنهم يعلون عليها ويتسنمون حتى يراهم الناس فيعجبوا بما هم فيه من نعيم .

ومثل ذلك الآية اللاحقة ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا﴾من حيث التنكير والتقديم .

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى وما كل ذلك سوى متاع زائل لا يدوم ففيه معنى القصر ، وقابل ذلك بأضدادها فقال : ﴿ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى إذا كان متاع الدنيا لمن سار فى تبعية الشيطان وإغرائه ، فنعم الآخرة لمن اتقى الله وابتعد عن المعاصى ، ومقابلة الشىء بضده تظهر الأشياء بوضوح ، ومصير الكافرين. ومصير المتقين .

﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أى فهو قرين له : فقدم الجار ليفيد أنه مخصص له لا يكاد يفارقه لحظة من اللحظات ، مداوم على وسوسته له .

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ تقديم الضمير على الفعل يفيد التوكيد على الصدّ والمنع عن الطريق المستقيم ، صد ومنع من الشياطين لقرنائهم عن الهداية وأخذ بأسبابها .

﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ عبر بأسلوب التمنى وليس الترجى ليفيد استحالة البعد عن شيطانه القرين ، وهو بعد عظيم يتمنى أن يكون كبعد المشرق عن المغرب ولكن هيهات فغلب المشرق على المغرب وثناه .

﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ حذف المخصوص بالذم ، لضيق المقام والنفرة من وجوده ، أى فبئس القرين أنت .

★ ★ ★

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾

الآيات: ٤٠ - ٤٥

الصم : جمع أصم ، والعمى : جمع أعمى ، أى أنت يا محمد لا تستطيع أن تسمع من فقد سمع القلوب ، ولا تهدى من فقد البصائر ، ولا من كان فى علم الله أنه يموت على الضلالة ،وعطف الضلالة على العمى باعتبار تغاير الوصفين ، فمن تمكن فى الضلال المفرط ، واستقر على الغواية الدائمة بحيث لا يخرج عنها أبدا ، فلست أنت المسئول عن سيرهم فى هذا الطريق ، ولست بملوم عن هذا بل هم الملومون، فلا يقدر أحد علىٰ إسماع الصم وهداية العمى ، وجعل الكافر مؤمنا سوى الله سبحانه لعظم قدرته ، وإحاطته بكل شىء ، واعلم يا محمد أن هؤلاء الكفرة سننتقم منهم لا محالة ، إما فى حياتك أو بعد مماتك ، فإن قبضناك وأمتناك قبل أن تبصر عذابهم ، وتشفى بذلك صدور المؤمنين فإنا سننتقم منهم على وجه اليقين فى الدنيا والآخرة ، أو نرينك عذابهم الذى وعدناهم فى حياتك ، فنحن قادرون على ذلك متمكنون منه ؛ لأنهم تحت قهرنا وقدرتنا . وفى ذلك تسلية للرسول عليه السلام بأن الله تعالى سينتقم من أعدائه كما حدث فى غزوة بدر حين أهلكهم باستبسال المسلمين وعونه الملائكة ، أو حين أهلك الكفار فى زمن أبى بكر رضى الله عنه فى حروب الردة. وفوق هذا وذاك فعذابهم الحقيقى سيرونه يوم القيامة .

فليس عليك هداهم ، وإنما عليك الاستمساك بالقرآن الذى أنزل عليك بمراعاة أحكامه سواء عجلنا لهم العذاب أو أخرناه ، فسر فى طريق التوحيد ودين

الإسلام فإنه هو الطريق السوى . فالقرآن شرف لك ولأمتك عموما ، وسوف تسأل عنه أمة محمد، عن تمسكهم بما جاء فيه من حقوق وواجبات ، وعن تعظيمهم له وشكرهم إياه ، وعلى أن الله فضلكم على كثير من عباده حين رزقكم بهدى القرآن .

ثم يقول الله لرسوله : اسأل الأمم السابقة التى نزلنا عليها الكتب بواسطة الرسل ، واسأل علماءهم ، الذين نظروا فى الأديان ، وفحصوا عن الملل ، سلهم هل حكمنا بعبادة الأوثان ، وهل جاءت العبادة فى ملة من مللهم ، بل الأنبياء جميعا نادوا بالتوحيد ، وبعبادة الله الواحد القهار .

أما قول الله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ فسؤال الرسل السابقين محال ، ولكنه جاء مجازا كما نقول : سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك وجنى ثمارك ، أى تأمل فيما حدث لها وما آل إليه حالها ، وتفحص كيف شقت من بينها الأنهار ، وغرست الأشجار فى قلبها ، وبانت فروعها وثمارها فى رأسها .

فسل الرسل ، والمراد سل من انحدر من أممهم : العلماء وذوى النظر فى أمور الدين، فعبر بالرسل ، وأراد أممهم ، فعبر بالملزوم وأراد اللازم ، حيث إن كل أمة تلزم رسولها .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ
آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾
وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ
يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ
﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ
أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾

الآيات : ٤٦ - ٥٦

القرآن يذكّر مشركى قريش بفرعون وقومه ، وتكذيبهم لموسى عليه السلام ومناوأتهم لقومه من بنى إسرائيل ، وما آل إليه فرعون وقومه بإغراقهم جميعا ، يذكر مشركى قريش بهذه القصة حتي يرتدعوا ويعودوا عن ضلالهم وغيهم مع محمد عليه السلام ، ويسرى عن رسوله ويطمئنه على موقفه من قومه الكافرين ، كما طمأن موسى بإغراق فرعون وملئه .

لقد أرسلنا موسى بمعجزات تدل على صحة نبوته ، أرسلناه إلى فرعون وقومه، أشرافهم وأراذلهم فلما جاءهم بهذه الآيات لينتفعوا بها ، سخروا منها ،

واستهزءوا بها ، وكذبوها أول ما رأوها ، وقالوا : هذا سحر وتخييل ظلما وعتوا . وكل آية أريناهم إياها كانت عظيمة كبيرة مثل سابقتها ، ليكون العذاب أكبر وأعظم، ولكن القرآن عبر بقوله : وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ؛ إذ إن المقصود وصف الكل بالكبر الذى لا مزيد عليه ، ووصف كل آية بأنها أخت للآية التى سبقتها؛ لاشتراكهما فى الصدق والصحة ، وكون كل ما فيها نظيرة للأخرى وصاحبتها وقرينتها ، ولأجل عتوهم وإنكارهم وتكذيبهم عاقبناهم بالسنين والطوفان والجراد والقمل والدم وغيرها ، فكانت هذه الآيات معجزات لموسى عليه السلام ، وزجرا وعقابا للكافرين ، لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والضلال . ولعل، وإن كانت فى أصل وضعها تفيد الرجاء ، إلا أنها فى الآية تفيد التعليل على سبيل المجاز.

ولما يئس سحرة فرعون من التغلب على موسى عليه السلام ، ويئسوا أيضا من العذاب الذى شملهم ، حكى الله عنهم ما أضمرته قلوبهم من اعتقادهم أنه ساحر ، وفى ذلك تسلية لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث وصفته قريش بأنه ساحر . قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء .

قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما لك من مكانة عنده ، وهى مكانة النبوة فالنبوة تسمى عهد الله ، وقال بما عهد عندك ولم يقل بما عهد إليك ؛ إشعارا بأن تلك التوصية مرعية محفوظة ،وليست ضائعة ملغاة .

ولو كشف عنا العذاب ، واستجاب الله دعاءك ، فإنا مؤمنون لك؛ راجعون إلى الله ، قالوا ذلك لما هم فيه من ضيق وشدة ، من العذاب الذى يجتاحهم، فلما كشف الله عنهم العذاب نسوا عهدهم ، وبادروا بالنكث ولم يؤخروه وعادوا إلى كفرهم وأصروا عليه ، فلما نقضوا عهودهم صاروا ملعونين .

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ النكث فى الأصل نقض الحبل والغزل فاستعير لنقض العهد .

وبعد أن كشف الله عنهم العذاب خشى فرعون على قومه أن يؤمنوا ، فنادى فيهم فرعون ، أليس لى ملك مصر على طول النيل من الإسكندرية إلى أسوان فى أقصى صعيد مصر ؛ ويقال فى سبب تسميتها مصرًا ؛ لأن الذى بناها مصر بن

حام بن نوح ، أو سميت بمصر ، من قولك : مصّر الشيء يمصره إذا قطعه ، سمي به لانقطاعه عن الأرض الجرداء بالعمارة .

وانظروا إلى هذه الأنهار وهى الخلجان الكبار الخارجة من النيل ، وأعظمها أربعة أنهر : نهر الإسكندرية ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس بالقرب من دمياط .

هذه الأنهار وغيرها تجرى من تحت قصرى ، وهى تحت أمرى وتصرفى ، أفلا تبصرونها، يريد بهذه العبارة استعظام ملكه ، ويقال إن هارون الرشيد عندما قرأ هذه الآية قال : لأولينها أخس عبيدى ، فولاها الخصيب ، وكان أسود أحمق.

أراد فرعون أن يقرر قومه بأنه خير من موسى هذا الضعيف المهين الذى لا يكاد يبين ، ولا يوضح الكلام لرتة فى لسانه، فكيف يصلح للنبوة، والرسالة فليس معه ما يتقوى به ، قال ذلك افتراء على موسى ، وتنقيصا له فى أعين الناس ، باعتبار ما كان فى لسانه من نوع رتة حدثت بسبب الجمرة ، وكانت قد ذهبت عنه ، لقوله تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ (طه : ٣٦) والرتة غير اللثغة التى هى حبسة فى اللسان تمنعه من الجريان وسلاسة الكلام .

ومن كان ضعيفا مهينا لا تهبط عليه الرسالة ، فهلا أعطى تقاليد الملك إن كان صادقا فى رسالته فيكون حاله خيرا من حال فرعون ، قالوا ذلك توبيخا ولوما له .

﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ وإلقاء الأسورة كناية عن إلقاء مقاليد الملك وأسبابه ، فكانوا إذا سوروا رجلا سوروه وطوقوه بطوق من ذهب دليلا على رئاسته وسيادته .

أو تنضم إليه الملائكة لتعينه فى أمره وتنصره وتشهد بصدقه .

وهكذا استفز فرعون قومه بالقول حتى يطيعوه فيما أراد منهم ، واستخف عقولهم فى الامتثال بأمره ، فأطاعوه فيما أمرهم به لفرط جهلهم وضلالهم ، ولذلك سارعوا إلى طاعة فرعون الفاسق الغوى .

فلما أغضبنا وقومه أشد الغضب بإفراطهم فى عنادهم وعصيانهم وغضب الله يتمثل فى الأخذ الأليم والبطش الشديد ، انتقمنا منهم وعجلنا لهم الانتقام وأدركناهم بالعذاب فأغرقناهم جميعا فى اليم لم نترك منهم أحدا ، وجعلناهم عبرة لمن أتى بعدهم من الكفار ، بل جعلناهم مثلا يسير بين الناس ويتحاكون به .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

الآيات: ٥٧ - ٦٤

لما قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء: ٩٨) غضبت قريش غضبا شديدا فقال ابن الزِّبَعْرَى بطريق الجدال: يا محمد أهذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم، فقال عليه السلام، هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم قبلكم، فقال ابن الزبعرى وكان من مردة قريش: ألست تزعم أن عيسى نبى وتثنى عليه وعلى أمه خيرا ؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرًا، وبنو مليح يعبدون الملائكة فإن كان هؤلاء فى النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم، لظنهم أن الرسول صار ملزما به .

والمعنى: ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا لآلهتهم وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه، إذا قريش من هذا المثل ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحا

وضحكا بما سمعوا منه من إسكات النبى عليه السلام بجدله ، وقالوا : يا محمد آآلهتنا خير عندك من عيسى ، أم عيسى خير عندك من آلهتنا ؟ فحيث كان عيسى فى النار ، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا في النار . وما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدال والخصام ، لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك لأنك إذا قلت: آلهتكم خير من عيسى ، فهذا إقرار بأنها معبودة ، وإن قلت عيسى خير من آلهتكم ، فقد أقر بأن عيسى يصح أن يعبد ، وإن قال ليس واحد منهم خيرا ففيه نفى الخيرية عن عيسى ورسالته ، فراموا بهذا السؤال الجدل والخصومة ، وليس إظهار الحق ، فهم قوم شداد فى خصومتهم فى الباطل ، مجبولون على اللجاج والخلاف ، ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف : ٥٤) فما المسيح ابن مريم إلا عبد من عبيد الله أنعمنا عليه بفضلنا سواء بالنبوة ، أو بخلقه دون أب ، كما جعلناه أمرا عجيبا جديرا بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة، ولو شئنا لخلقنا منكم بطريق التوالد – وأنتم رجال من الأنس وليس من شأنكم الولادة – كما ولدت حواء من آدم وعيسى من غير أب ، لخلقنا منكم ملائكة كما خلقناكم بطريق الإبداع ، تكون مستقرة فى الأرض ، كما جعلناهم مستقرين فى السماء ، يخلفونكم من بعدكم مثل أولادكم ، فيما تأتون وتذرون ، وتباشرون الأعمال المتعلقة بكم ، مع أن من شأن الملائكة التسبيح والتقديس فى السماء .

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ونزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان شرط من أشراط قيام الساعة ، وبه يعلم قربها وعبر بالمصدر « علم » مبالغة فى كونه مما تعلم به ، فكأنه نفس العلم بقربها فلا تشكوا في وقوعها ، والامتراء : المحاجة فيما فيه مرية وشك ، واتبعوا هداى وشرعى ورسولى ، فما أدعوكم إليه هو الطريق المستقيم المؤدى إلى الحق ، فلا يصرفنكم الشيطان عن اتباعى ، فهو لكم بيِّن العداوة ، حيث أخرج أباكم آدكم من الجنة ونزع عنه لباس النور ، وعرضكم لما أنتم فيه من البلايا.

ولما جاءكم عيسى عليه السلام بآيات الإنجيل وبشرائع الدين ، وبالمعجزات الواضحة قال قد جئتكم بالحكمة لتعملوا بها ، ولأوضح لكم ما تختلفون فيه من أمور دينكم ، أما ما يتعلق بيانه فى أمور الدنيا ، فليس من شأن الأنبياء بيانه ، فأنتم

أعلم بأمور دنياكم ، وقال هنا ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ عبر بالبعض وأراد الكل ، قاله ابن عباس رضى الله عنه – فاتقوا الله فى مخالفتى وأطيعون فيما أبلغه عنه تعالى ، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، وهذا هو الطريق المستقيم الذى لا يضل صاحبه ، طريق التوحيد ، والتعبد بالشرائع السماوية ، فالله هو ربى وربكم فخصوه بالعبادة دون غيره من الأصنام والأوثان والملائكة والناس أجمعين .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ الاستفهام هنا جاء لتقرير الرسول بأن عيسى خير من آلهتهم ، ومع ذلك فقد عبده النصارى ، فلم لم تعبد قريش أوثانها .

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ ضربوا هذا المثل رغبة فى الجدل لا أكثر ، ولم يضربوه رغبة فى إظهار الحق ، والأخذ به ، ولذلك أضرب الله سبحانه عن ذلك وقال إنهم قوم خصمون ، عبر بصيغة المبالغة « خصمون » لشدة خصومتهم ومبالغتهم فى إظهارها ، وعيسى ليس إلا عبدا من عبادنا ، وليس إلها يعبد كما تفعلون ، وطيرنا ذكره كما تطير الأمثال السائرة بين الناس .

وقد أراد الله بيان قدرته اللا نهائية ، بأنه لو أراد لجعل الرجال يلدون وهذا مخالف لما جرت عليه العادة ، ويلدون ملائكة ، وليس هذا فى إمكان أحد سوى الله، وملائكة تسير فى الأرض لا فى الهواء ولا فى السماء ، وكل واحدة من هؤلاء لا يقدر عليها بشر ، بل هى فقط تبين قدرة الله القاهر وحده ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ المصدر هنا « العلم » للمبالغة فى نزول عيسى واعتباره علامة على قرب الساعة ، حتى إنه جعله هو القرب بعينه ، «فلا تمترن » ذكر نون التوكيد ، لتأكيد شكهم فى وجود الساعة أصلا .

﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الأمر للترغيب والحث على الاتباع ، فاتباعكم الذى يعود عليكم بالفائدة والمنزلة عند الله هو الصراط المستقيم، فاسم الإشارة للتعظيم ، والتقريب من الله ودين الله .

﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أكد صد الشيطان ومنعه لهم عن الاتباع بنون التوكيد ،فهو لكم ظاهر العداوة ، وأكد عداوة الشيطان لهم بأن واسمية الجملة ، وقدم « لكم » ليدل على أن عداوته لكم دون غيركم ، من الذين لا يتبعون الرسول ، فعداوته ظاهرة لمن يخفق قلبه بالإيمان ، أو يفكر فى التقوى من المعاصى .

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ ضمير الفصل « هو » يفيد القصر والتخصيص ، أي ربى هو الله ، وليس أحد سواه ، فهو رب العالمين ، ربى وربكم ، وليس لنا إلا عبادته جل شأنه .

★ ★ ★

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ
(٦٥) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ
يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ
الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩)
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ
وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)
وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴾

الآيات: ٦٥ - ٧٣

« فاختلف الأحزاب من بينهم » ، الأحزاب جمع حزب بمعنى جماعة الناس ، اختلفوا بعد رفع عيسى عليه السلام ، بثلاثمائة سنة ، وليس فى حياته ؛ لأنهم أحدثوا وولدوا بعد رفعه . وهذه الأحزاب كانت من اليهود والنصارى الذين بعث إلى أسلافهم من قبل ، أى تحزّبوا فى أمر عيسى عليه السلام ، فقالت اليهود لعنهم الله: زنت أمه ، فهو ولد الزنى ، وقال بعض النصارى عيسى هو الله ، وقال بعضهم: هو ابن الله ، وقال آخرون الله وعيسى وأمه آلهة ، وهو ثالث ثلاثة ، وتحزب كل لرأيه.

وفى بعض كتب التفسير :

حزب آمنوا به أنه عبد الله ورسوله .

وحزب آمنوا به أنه ثالث ثلاثة فعبدوه بالألوهية .

وحزب اتخذوه ولد الله وابنا له . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وحزب كفروا به وجحدوا نبوته وأرادوا قتله ، فظلموه .

والله يقول فى حق الظالمين المشركين ، فويل للذين ظلموا .

وقد عبر بالاسم الظاهر بدلا من الضمير تسجيلا عليهم بالظلم ، فويل لهم من يوم أليم العذاب ، فلا ينتظرون إلا إتيان الساعة ووقوعها ، فهى آتية لا ريب فى ذلك ، فكأنهم ينتظرونها ، ولكنها ستأتيهم بغتة ، لكونهم غافلين عنها ، لاشتغالهم بأمور الدنيا ، منكرين لها . « وهم لا يشعرون » لا تغنى عن ذكرها « بغتة » فربما يكون إتيان الشيء بغتة مع الشعور بوقوعه والاستعداد له ، فإذا لم يعرف وقت مجيئه ، وجاء فهو بغتة ، وربما يجيء والشخص غافل عنه منكر له وهو المراد هنا .

والأصدقاء الذين تتخللهم المودة ، ويتحابون فى الدنيا يصبح بعضهم عدوا لبعض يوم تأتيهم الساعة، لانقطاع ما بينهم من علائق المودة ، إلا المتقين ؛ لأن خلتهم فى الدنيا كانت فى الله وبالله ، وتبقى على حالها ، بل تزداد برفع الدرجات ، وزيادة الثواب . فالخلة والصداقة.إذا كانت فى الدنيا مبنية على الهوى ، تكون فى الآخرة عداوة ، تؤدى لأن يتبرأ بعضهم من بعض ، والأخلاء في الله خلتهم باقية إلى الأبد ، وينتفع بعضهم من بعض، ويشفع بعضهم فى بعض ، وهم المتقون الذين استثناهم الله فى الآية الكريمة .

وشرائط الخلة فى الله : أن يكونوا متحابين فى الله محبة خالصة لوجهه الكريم من شوب بعلة دنيوية ، متعاونين ، لا يجرى بينهم مداهنة ، فإذا علم منه شيئا لا يرضاه الله ورسوله ، لا يرضاه عن صاحبه ولا يداريه .

هؤلاء المتقون يناديهم الله سبحانه وتعالى يا عبادى ، ويضيفهم إلى نفسه تشريفا لهم ، وتطييبا لنفوسهم وقلوبهم ، لا خوف عليكم من لقاء المكاره ، ولا حزن من فوت المقاصد كما يخاف ويحزن غير المتقين . فأنتم آمنتم بآياتنا ، وأسلمتم لطاعتنا ، فكان من حقكم دخول الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات فى مسرة وحبور يظهر أثره على وجوهكم ، وحسن هيئتكم - فالحبر : الأثر المستحسن - ويدار على هولاء العباد المؤمنين بعد دخولهم الجنة بصحاف من ذهب بأيدى الخدم من الغلمان ، وقصاع فيها طعام ، وأكواب فيها شراب ، والأكواب جمع كوب ، والكوب كوز لا عروة له ولا خرطوم حتى يشرب منها الشارب من أى مكان يشاء ، وفى هذه الجنة

كل ما تشتهيه الأنفس من فنون اللذة كالمطاعم والمشارب والملابس والمراكب ونحو ذلك مما تستلذه الأعين وتقر بمشاهدته .

ثم يلتفت إليهم موجها الخطاب لهم لتشريفهم : أنتم فى الجنة خالدون ، دائمون لا تخرجون ولا تموتون ، إذ لولا الدوام والبقاء ، لنقص العيش ونقص السرور ، والاشتهاء واللذة، فلن يكون التنعم كاملا ، ولا الخوف زائلا ، بخلاف الدنيا ، فإنها لزوالها ، مشوب عيشها بالكدر ، ومخلوط بالضرر .

وهذه الجنة التى أعطيتموها وجُعلتم ورثتها بسبب ما كنتم تعملون فى الدنيا من الأعمال الصالحة ، وخلودكم فيها بسبب عدم السيئات ، فيذهب العمل ، ويبقى جزاؤه .

ولكم فى الجنة غير الأطعمة والأشربة فاكهة كثيرة متنوعة ، فالفواكه من أشهى الأشياء للناس ، وأوفقها لطباعهم وأبدانهم ، وهذه الفاكهة الكثيرة لا تأكلون إلا بعضا منها ، أما الباقى فهو معلق بفروع الأشجار على الدوام يزين فروعها وأغصانها ، فهى متوافرة أبدا موجودة دائما .

وهذه النعمة الكاملة العظمى فى حق المؤمنين الكاملين الذين أسلموا وجههم لله سبحانه ، أما الناقصون فإنهم وإن آمنوا إلا أن إسلامهم لم يكن على الكمال، فلهم نعيم بعد انقضاء مدة خوفهم وحزنهم ، وانتهاء زمن حبسهم وعذابهم .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بعد ما قال فاختلف الأحزاب ، والذين ظلموا من الأحزاب ، فكان الكلام (فويل لهم) يقول بهذا المعنى ؛ ولكنه عبر بالموصول وصلته « الذين ظلموا » أى عبر بالظاهر بدلا من الضمير للتسجيل عليهم بالظلم ، والمواجهة بالعيب فيها قسوة على الناس من جانب ، وإفحام لهم من جانب آخر بحيث لا يستطيعون الإنكار أو التخلص .

﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ كناية عن يوم القيامة فهو أليم العذاب ، واليوم لا يوصف بالألم ، وإنما يقع الألم فيه ، فهو من المجاز .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ الاستفهام هنا بمعنى النفى ، والنفى والاستثناء يفيد القصر ، أى تأتيهم فجأة لا عن ترقب وانتظار .

﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ إطناب بمعنى التتميم، لإفادة أن الشيء قد يأتى بغتة وقد أعدت العدة لاستقباله ، فأراد أن يدفع هذا الوهم ، وهو أن الشيء قد أتى بغتة وهم فى غفلة عنه أيضا ، فيفيد غفلتهم وسهوهم وعدم اهتمامهم حتى إنهم لم يشعروا بوقوع الساعة ولم يستعدوا لها .

﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ نفى عنهم الخوف كما نفى عنهم الحزن ، فهما صفتان مختلفتان ، نفاهما بلا ، وجاءت مكررة لدخولها على نكرة « لا خوف » وعبر باسمية الجملة « ولا أنتم تحزنون » ولا حزن عليكم كما قال « لا خوف عليكم » لينفى عنهم مجرد استحضار الحزن الذى يمكن أن يكونوا قد لاقوه فى يوم من أيام حياتهم الماضية قبل دخولهم الجنة .

ووصفهم بالإيمان والإسلام : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ مما يدل على اختلاف الإسلام الذى يكون بنطق الشهادة ، والإيمان وهو شعور قلبى لا رجعة فيه ما دام حقيقيا .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ نكر الصحاف والذهب والأكواب ، ليفيد أنها نوع خاص غير النوع الذى عهدناه فى الدنيا ؛ بل هو نوع لم يسبق للعين أن رأته .

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ قدم الجار والمجرور لإفادة الخصوصية بأن هذا الاشتهاء وهذه اللذة فى الجنة التى أعدت للمتقين دون غيرها .

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ عبر باسم الفاعل « خالدون » لإفادة دوام الخلود ، وبقائهم أحياء لا يذوقون فيها موتا ولا انقطاعا .

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا ﴾ أى هذه الجنة وما فيها من نعيم جزاء لأعمالكم فى الدنيا ، فشبه جزاء العمل بالميراث ، فالعمل كالموروث ، والجزاء كالميراث .

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ قدم الخبر « لكم » كما قدم الجار فيها ، ليفيد تخصيص هذه الفاكهة لكم دون غيركم ، وفى الجنة دون غيرها ، فهذا التقديم لإفادة هذا المعنى ؛ إذ هناك مسوغ لتقديم المبتدأ كما هو الأصل لأنه جاء موصوفا ﴿فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ .

* * *

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾

الآيات: ٧٤ - ٨٠

إن المجرمين الراسخين فى الإجرام وهم الكفار ، فى عذاب خالد لا ينقطع كما ينقطع عذاب عصاة المؤمنين ، ولا يخفف عنهم ولا ينقص ، ولا يفتر عنهم، من الفتر وهو السكون بعد الحدة ، واللين بعد الشدة ، والضعف بعد القوة ؛ بل هم آيسون من النجاة والراحة وخفة العقوبات ، وهم فى العذاب مبلسون ، من الإبلاس ؛ وهو الحزن الناتج عن شدة اليأس ، ومنه اشتق إبليس ، والمُبْلِس كثيرا ما يلزم السكوت وتنقطع حجته ، وما ظلمناهم بهذا العذاب ، ولكن هم الذى ظلموا أنفسهم فعرضوها للعذاب الخالد بالكفر والمعاصى .

ومن فرط العذاب الذى لا قوة فى جهنم نادوا خازن النار أن يخلصهم من هذا العذاب ، ويسأل ربه أن يميتهم ويقضى عليهم ، إلا أنه تهكم عليهم وأيأسهم من تخليصهم من العذاب ، أو بالموت؛ بل هم ماكثون فى جهنم ، مقيمون فى العذاب أبدا ولا خلاص لهم بموت ولا بغيره ، وليس لهم إلا خوار كصياح الحمير أوله زفير وآخره شهيق . ثم يقول لهم موبخًا ، لقد جئناكم بالحق فى الدنيا ، أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتب من جهة الله تعالى ، مبينا بذلك سبب مكثهم فى العذاب ، ولكنهم لا يقبلون الحق ، وينفرون من القرآن والرسل ؛ لأن فى الحق إجهادا للنفس، فهم كارهون للتوحيد والقرآن .

فإذا كنتم قد أحكمتم أموركم ، وأبرمتم كيدكم ، وأكدتم مكركم ، فإنا مبرمون كيدنا حقيقة لا صورة ، لقد كدتم للرسول وأردتم قتله ، وتشاورتم فى أمره فى دار الندوة ، فأخفقنا مكركم وكيدكم ويؤتم بالفشل والهزيمة ، ونحن أحكمنا أمرنا وأعددنا لكم العذاب ولا مفر لكم منه ، ولا تظنوا أنه خفى علينا سركم وما تبثونه من كيد ، وما تتحدثون به فيما بينكم بحيث لا يسمعكم أحد ، فنحن نسمع كل همسة ونطلع على كل لفتة ولنا من الحفظة الذين يلازمونكم ويكتبون أعمالكم ويسجلونها فى صحائفهم ، ويسجلون كل قول أو فعل ، ثم نعرضها عليكم يوم القيامة.، فإذا كانت خفاياكم ونجواكم لا تخفى على الحفظة ، فكيف تخفى على الله سبحانه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ قدم الجار والمجرور « فى عذاب جهنم » على الخبر « خالدون » لبيان الاهتمام بالمقدم وهو كونهم فى العذاب يصطلون بحر جهنم ووجودهم فى شدة العذاب ، وفى جهنم أهم من خلودهم فى النار ، لأنه أشد وافظع لاحتمال أن تكون جهنم مع خلودهم فيها واهنة ضعيفة ، فالعبرة إذن ليست بخلودهم فى النار ، ولكن العبرة بمكثهم فى وسط جهنم .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ نفى الظلم عن ذاته العادلة الكريمة ، وأثبت الظلم لهم ، وأكد نسبة الظلم إليهم بضمير الفصل « هم » . ووصف العذاب بوصف، وهو أنه شديد قوى لا يفتر ولا يضعف، ووصفهم بوصف وهو أنهم آيسون من النجاة، فإذا اجتمع العذاب وعدم الخلاص، فلا شىء بعد ذلك، ولا شىء أفظع من هذه الحال .

﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ الأمر هنا للتمنى ،أى لتمنى الموت طلبا للراحة والسلامة، فكان الجواب بتأكيد نفى ذلك « إنكم ماكثون » مستمرون فى البقاء لا تخرجون من جهنم ، ولا تتزحزحون عنها قيد أنملة ، ولذا عبر باسم الفاعل « ماكثون » ثم يسايرهم القرآن فيذكر كل الاحتمالات التى خطرت بأذهانهم .

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ استعار أبرموا ، من إبرام الحبل وفتله لإحكام أمورهم . والإبرام أمر حسى ، وإحكام الأمر شىء معنوى ، والتعبير بالحسى أبلغ

وأبين فى إبراز المعنى . وعبر فى شأنهم بالجملة الفعلية . أم أبرموا . وفى شأنه تعالى عبر بالجملة الاسمية « فإنا مبرمون » والجملة الاسمية أقوى دلالة على استمرار الشىء وثبوته من الجملة الفعلية .فإبرام الله وإحكامه أقوى من إبرامهم وإحكامهم .

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ عطف النجوى على السر ، لاختلاف معناهما ، فالسر ، ما يسره المرء فى نفسه من الأمور التى عزم عليها ، وهى هنا الكيد . والنجوى ، أن تتشاور مع قومك بعيدا عن غيرهم ، واستعار النجوى من نجوى الأرض وهو المكان المرتفع المنفصل عما حوله بارتفاعه .

* * *

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

الآيات: ٨١ - ٨٩

وقل يا محمد لهؤلاء الكفرة ، إن كان للرحمن ولد على سبيل الفرض ، كما تقولون : الملائكة بنات الله ، وثبت ذلك بحجة قطعية كون الولد له كما تزعمون ، فأنا أولكم للتعظيم وأسبقكم إلى الطاعة ، تعظيما لله تعالى وانقيادا ؛ لأن الداعى إلى طاعته وتعظيم حقوقه ، تعظيم ولده؛ لأن تعظيم الابن من تعظيم الأب ، وتكريم الولد من تكريم الوالد. سبحانه وتعالى عن هذا التجديف ، ولما كان كون الولد مقطوعا بعدم وقوعه ، إلا أنه نزل ذلك منزلة من لا جزم بوقوعه على المساهلة وإرخاء العنان لهم ، قصدا لتبكيتهم وإسكاتهم ، وإفحام حججهم، ولذا جيء بكلمة إنْ، ولا يلزم من ذلك صحة وجود الولد وعبادته ، لأنه محال فى نفسه ولا يترتب على المحال سوى المحال . ﴿ قُلْ إن كان للرَّحْمَن ولَدٌ فأنا أولُ العَابدين﴾ .

فالله رب أعظم الأجرام وهى الأرض والسماء ، وما فيهما من مخلوقات تقع تحت ربوبيته وملكوته ، فكيف يتصور أن يكون شيء منها جزءا منه سبحانه ، وإنما

يجب علينا أن ننزه الله عن كل ما يصفه الكافرون به من صفات الأجسام ، واترك يا محمد الكفرة حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا وعرفوا هذا البرهان الجلى ، ودعهم يشرعوا فى أباطيلهم وأكاذيبهم ويخوضوا فيها ، ويلعبوا فى دنياهم ؛ لأن ما هم فيه من الأقوال والأفعال ليس إلا من باب الجهل واللعب ، دعهم وضلالهم حتى يعاينوا يوم القيامة ، فإنهم حينئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم من العقاب والعذاب.

وهو الحقيق بأن يعبد فى السماء من الملائكة ، وفى الأرض من الجن والإنس، وبه تقوم السماء وتوجد الأرض ، وليس حالا بهما أو بأحدهما ، ، إذ هو المتصف بكمال الحكمة والعلم، المستحق هو لا غيره للألوهية ، ومن كانت هذه صفاته تنزه عن الولد والشريك ، وجلّ عن الزوال والانقطاع ، وعمت بركة ذكره ، وزيادة شكره ، وبالإضافة إلى أنه مالك للسموات والأرض فهو يعلم الساعة التى تقوم فيها القيامة إذ لا يعلمها سواه، فإن دمتم على غيكم وإنكاركم وتكذيبكم ، فانتظروا قيام الساعة ، واحذروا مصيركم الذى ينتظركم ، فأنتم إليه راجعون ، ولن يستقبلكم سوى زبانية جهنم المكلفين من الله بلقائكم . وعندئذ لا تملك الأوثان التى كنتم تعبدونها في الدنيا الشفاعة لكم كما زعمتم ، فالشفاعة ليست فى مقدورهم ، وإنما أوكل الله الشفاعة فقط لمن شهد بالحق والتوحيد كمحمد عليه السلام وعيسى وعزير والملائكة ؛ لأنهم يعلمون بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص، ولكنك لو سألت الكفار من العابدين ، والأصنام من المعبودين من خلقكم وأنشأكم؟ تعذر عليهم الإنكار لشدة ظهوره فقالوا : خلقنا الله ، فكيف يصرفون إذن عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، وهم يعترفون بأن الجميع مخلوق لله تعالى ، أليست هذه الحال من الجحود للتوحيد تدعو للعجب ، على الرغم من أن التوحيد مركوز فى طباعهم .

وكما أن الله عنده علم الساعة فعنده علم بدعاء رسوله عليه السلام ، عندما شكا لله قومه من الكفار بأنهم لا يريدون الإيمان ولا يرغبون فيه ، وقد ساءه موقفهم من الله ورسوله ، وقد دعا محمد الله ولجأ إليه ، إذ ليس له إلا الله ملجأ وملاذا ، وعلى الرغم من كل ما عاناه من مشركى قريش وتكذيبهم وأذاهم له ، طلب من رسوله الصفح عنهم ، والإعراض عن دعوتهم، والقنوط من إيمانهم ، وطلب الله من

نبيه أن يتبرأ من دينهم، ويسلم من عبادتهم ، ويتركهم إلي ما هم فيه من غى وكفر وضلال. وقل سلام : فليس المأمور به السلام عليهم والتحية لهم ؛ بل البراءة منهم.

فسوف يعلمون ما يلاقون ، وإن تأخر ذلك عنهم ، فالعقاب والعذاب ينتظرهم وفى ذلك وعيد من الله وتسلية لرسوله الكريم ، فعلى العاقل أن يتدبر ذلك ، قبل درك الموت له ، وفوات الأجل وضياع الأمل .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ علق العبادة على مستحيل وهو وجود الولد للرحمن ، وما بنى على مستحيل فهو مستحيل قطعا ، ولكن نزل ما هو مقطوع بعدم وجوده منزلة مالا جزم بوقوعه ، على سبيل التساهل وإرخاء العنان للمكذبين والمنكرين ، تقريعا لهم وتبكيتا لحالهم .استعمل لفظ إن التى تفيد وقوع الاحتمال فلا يلزم من وجودها احتمال وجود الولد وعبادته ؛ لأن ذلك محال على الله سبحانه .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أضاف لفظ « رب» إلى السموات والأرض ، وهما أعظم الأجرام، تشريفا لهما ، إذ هما يقعان تحت ملكه وتصرفه وهو ربهما وهما من مخلوقاته .

﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ كرر لفظ الرب لما فيه من تفخيم لشأن العرش .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ استعار يخوضوا ، وهو الشروع فى الماء والمرور فيه مما يصيب الإنسان بالبلل والوحل ، لتركهم للحق ولجوئهم إلى الباطل مما يتسبب فى تعلق كفرهم بهم ، وتلوثهم بعبادة الأصنام .

كما استعار اللعب لجهلهم وبعدهم عن صواب العلم بوحدانية الله وعبادته.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أى إله فى الكون كله علوه وسفله سمائه وأرضه ، فى كل بقعة فى الوجود، إله عظيم عزيز حكيم ، ونكر « إله » لتعظيمه إلى ما لا نهاية للعظمة ، وكرر « إله » تأكيدا لألوهيته وملكوته ، وكان يمكن

التعبير بقوله مثلا: « وهو الذى فى السماء والأرض إله » ولكنه آثر التعبير القرآنى لما فيه من إجلال لشأنه ،وتأكيد لألوهيته .

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

فى الآية أربعة معان :

تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الولد والشريك فى لفظة «تبارك» . وجود الكون كله تحت سيطرته وتصرفه ، فعبر بقوله له ملك السموات والأرض وما بينهما .

وقت قيام الساعة الذى لا يعلمه سوى الله « وعنده علم الساعة » تهديد الكافرين بالعودة إليه ، ولا مفر من ذلك ، فإليه لا إلى غيره تكون الرجعة،فاهتموا للقاء الله ، واحذروا عقابه .

ويبين القرآن مدى عنادهم وتكبرهم عن الاعتراف فى الحق ، فمركوز فى طباعهم وحدانية الله ، وخلقه السموات والأرض ، ولكنهم لا يبغون الاعتراف بذلك.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ فهم يعترفون بخلق الله للسموات والأرض ، فذلك ظاهر لا يستطيعون إنكاره ، وإذا كانوا لا ينكرون فما بالهم ينصرفون عن عبادته ، أليس فى ذلك ما يدعو للعجب .، كما يدعو للتوبيخ ؟

﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ عبر بقوم ، ولم يضفهم إليه فيقول « قومى » لما رآه منهم وساءه من أحوالهم حتى أنف أن يضيفهم إلى نفسه ويضيق صدره بهؤلاء المعاندين الكافرين ، اختصر الكلام اختصارا .

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ الأمر هنا بالصفح للترغيب فيه ، وبيان علو شأن الرسول عن هذه الأشياء المستقبحة المنفرة ، فهو أعلى قدرا وأبعد شأوا ، والصفح من شيم الكرام ، واترك شأنهم لنا ، فسوف يعلمون عقابى ، مهددا لهم على جريرة أعمالهم، فلن يلاقوا سوى العناء والعذاب .

* * *


سورة الدخان



﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾

الآيات : ١ - ٩

﴿حمٓ﴾ الحاء إشارة إلى الحى ، والميم إشارة إلى القيوم ، والحى القيوم هما أعظم الأسماء الإلهية لاشتمالهما على المعانى والأوصاف والحقائق .

أو ﴿حمٓ﴾ إشارة إلى الوحى الخاص إلى محمد عليه السلام ، فالحاء من الوحى، والميم من محمد عليه السلام .

﴿والْكتَاب الْمُبِين﴾ الواو للعطف وليست للقسم ، إذ لو كانت قسما آخر لزم اجتماع القسمين ، قسم بحم ، وقسم بالكتاب ، على مقسم عليه واحد ، مما تأباه اللغة .

فهذا الكتاب مبيّن لطريق الهدى من طريق الضلالة ، وموضح لكل ما يحتاج إليه فى أبواب الديانة .

وجواب القسم ﴿إِنَّا أنزَلْنَاهُ﴾ أى انزلنا القرآن فى ليلة مباركة وهى ليلة القدر من شهر رمضان من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنْيا دفعة واحدة ، ثم كان جبريل ينزل به على النبى ﷺ متفرقا على ثلاث وعشرين سنة ، أى بدأ نزوله فى ليلة القدر ، والحكمة فى نزوله ليلا، أن الليل هو زمن المناجاة ، ومهبط النفحات، ومحل الأسرار ، وفى الليل فراغ القلوب بذكر حضرة الحبيب المصطفى ،

وذكـر الله الكريم ، فـالليل أطيب مـن النهـار عند المقـربين والأبرار ، ووصف الليلة بالبركة لما فيها من تنزيل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة ونحو ذلك ، وقد أنزلنا القـرآن لأن من شـأننا الإنذار والتـخويف من العـقـاب حتى يرتدع الناس من غـيـهم وكفرهم .

وفى هذه الليلة المباركـة يفصل فى كل أمـر بإحكام وإتقـان ، من أرزاق العـبـاد وآجالهم وجميع أمورهم .

وهذا الأمر الذى يفرق فيه هو الأمر الحاصل من لدنّا على مقتضى حكمتنا ، وكما أنزلنا القرآن ، أرسلنا الرسل بالكتب إلى العباد لأجل إفاضة رحمتنا عليهم ، وأرسلنا محمدا إلى الناس كافة رحمة مهداة من عندنا ليخرج المشتاقين من ظلمات المفارقة إلى نور المواصلة ، فالله يسمع كل شىء من شأنه أن يسمع ، خصوصا أنين المشتاقين ، ويعلم كل شىء من شأنه أن يعلم ، خصوصا حنين المحبين ، فلا يخفى عليه شىء من أقوال العباد وأفعالهم وأحوالهم .

وهو رب جميع الموجودات العلوية والسفلية ، ولكنكم ترتابون فى ربوبيته ، فإن كنتم موقنين بشىء ، فهذا أولى ما توقنون به لفرط ظهوره ، وأكد وحدانيته بقوله لا إله إلا هو يوجد الحياة فى الجماد ، ويوجد الموت فى الحيوان بقدرته ،كما هو معلوم مشاهد ، فالله ربنا وخالقنا ورازقنا ، ورب آبائنا من آدم وأولاده إلى يوم القيامة، ولكنهم غير موقنين بما ذكر ، ولا يقولون ما يقولون إلا عن هزؤ ولعب وسخرية ، ووصفهم باللعب لترددهم وتحيرهم فى أمر الدين ، واشتغالهم بالدنيا،واغترارهم بزينتها فتبًا لهذه القلوب التى خالطها الشك ، فما تنفعها العظات .

★ ★ ★

الاسرار البلاغة :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ أكد نزول القرآن فى ليلة القدر بإن ومجىء الفعل ماضيا ، ووصف الليلة بأنها مباركة ، أى تقع البركة فيها ، فهو تعبير مجازى ، ونكر « ليلة» تفخيما لشأن هذه الليلة ، إذ نزل فيها القرآن وحلت فيها البركة .

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِين ﴾ جاءت هذه الجملة غير معطوفة على ما قبلها ، جاءت مستأنفة حيث إنها في تقدير سؤال ، لماذا أنزل القرآن ، الجواب : لأن من شأننا الإنذار والتخويف .

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم﴾ وصف الأمر بالحكمة ، أى حكيم صاحب الأمر ، وهو حكيم لا يصدر عنه لغو ولا لعب ولا عبث .

﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أضاف الأمر إلى نفسه ، لبيان فخامته وعلو شأنه .

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وضع الظاهر « من ربك » بدلا من الضمير « منّا » لتشريف لفظ الجلالة .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم﴾ فصل بالضمير هو : لاختصاصه بأنه سميع وعليم ، أى فيه السمع الكامل ، والعلم اللامتناهى ..

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أكد وقرر بقوله لا إله إلا هو ، الآية السابقة ، بما يجب عليهم من اليقين بوحدانية الله دون تعدده ، والشك فى ألوهيته . فالله قادر على الحياة والموت ، أى على الجمع بين المتناقضات ، فقدرته شملت كل شىء . وليس هو ربنا فقط ، ولكنه ربنا ورب الخلق جميعا منذ آدم عليه السلام وذريته من بعده إلى يوم الدين .

وعلى الرغم من ذلك فهم فى شك ، مستمرون فى لغوهم وعبثهم واستهزائهم، والله لن يتركهم وأعمالهم دون رقيب أو حسيب .

★ ★ ★

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾

الآيات: ١٠ - ١٦

أى : ارتقب وانتظر يا محمد كفار مكة يوم تصب عليهم السماء دخانا ظاهرا لا شك فيه ، والمراد بالدخان هنا شدة القحط وغلبة الجوع ، فانتظر لهم يوما شديدا ومجاعة هائلة ، والجائع يرى مما بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إما لضعف بصره ، أو لأن فى عام القحط يظلم الهواء لقلة الأمطار وكثرة الغبار ، ولذا يقال لسنة القحط ، السنة الغبراء ، وهى السنة التى لا تنبت الأرض فيها شيئا ، وكانت الريح إذا هبت ألقت ترابا كالرماد ، وذلك أن قريشا لما بالغوا فى إيذاء النبى ﷺ دعا عليهم فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنينَ كسنى يوسف » وهى السبع الشداد، فاستجاب الله دعاءه ، فأصابهم قحط حتى أكلوا الجيف والجلود والعظام ، ووبر الجمال الممزوج بالدماء يشوى على النار ، وكأن الرجل يحدث الرجل ويسمع كلامه دون أن يراه فكان الدخان يحيط بهم من كل جانب ، ويشملهم من كل وضع ، فمشى إلى رسول الله ﷺ أبو سفيان ومعه نفر من رؤساء قريش يناشدونه الرحم ، قائلين : نسألك يا محمد بحق الله وبحرمة الرحم أن تستسقى لنا ، ووعدوه إن كشف الله عنهم العذاب أن يؤمنوا ، وذلك قوله تعالى ، ربنا اكشف عنا العذاب والجوع ، وسنؤمن بعد رفعه ،ولكنهم كذبوا فى وعدهم ولم

يتذكروا ما قالوه للرسول ومناشدتهم إياه بكشف العذاب ، ولم يتعظوا بما اعتراهم من قحط وجوع وعذاب ؛ بل كذبوا بما هو أكثر من ذلك ، كذبوا رسولهم الذى بين لهم مناهج الحق بإبراز آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تحرك الجبال الصم ، أعرضوا عن الرسول وعن تصديق معجزاته ، ولم يقنعوا بذلك؛ بل تمادوا بالطعن فيه فقالوا إن غلاما أعجميا لبعض ثقيف اسمه عداس يعلمه ما يقول وما يخرج من هذه الأشياء ، وقالوا أيضا : إنه مجنون ، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ، وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضغا .. أي صاح من الألم .. وإذا شبع طغى .

ومع ذلك فسوف نكشف عنهم العذاب قليلا ، حتى تنكشف نواياهم أمام أنفسهم ، فهو يعلم حنثهم ونكوصهم عما وعدوا به محمدا ، وهم سيعودون إلى الكفر لا محالة إذا انكشف عنهم العذاب ، ويتمسكون بعتوهم وعنادهم وشركهم إذا زال عنهم المانع ، ولكننا يوم القيامة ننتقم منهم ونعاقبهم العقوبة العظمى ، ونبطش بهم البطشة الكبرى ، فكل ما أصابهم فى الدنيا من جوع وما ذاقوه من قتل وأسر يوم بدر ، كل هذا عذاب أدنى وهو أقل وأخف مما ينتظرهم من العذاب الأكبر ، فإذا كان يوم القيامة أخذناهم أخذا شديدا لا يقاس به عذاب الدنيا .

* * * * *

الأسرار البلاغية :

﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إتيان السماء بالدخان ، ليس إلا بفعل الله ، والسماء من أسباب وجوده ، فالإسناد هنا مجاز باعتبار السبب .

﴿يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هذا الدخان يحيط بالناس وبالأشياء من جوانبهم كافة فاستعار الغشيان للإحاطة ، ويغشى أبلغ مما يحيط بهم؛ لأن الإحاطة وإن كانت شاملة من حولهم ، إلا أن الغشيان يشملهم أيضا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فالعموم بالغشيان أشد .

ونكر « العذاب » لبيان شدة روعه وفظاعه أله ، فالتنكير للتعظيم والتشديد ناهيك أيضا عن وصفه بأنه اليم ..

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ ﴾ فعل الأمر هنا ليس للطلب ، وإنما هو للدعاء فخرج عن أصل وضعه .

﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ يريدون أن يؤكدوا دوامهم على الإيمان إذا انكشفت عنهم الغمة؛ ولذا عبر بإن التى تفيد التوكيد ، كما عبر باسم الفاعل ليفيد الدوام والاستمرار .

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ الاستفهام هنا للاستبعاد ، فما قالوه لم ينفذوه ، ولم يصدر عنهم الإيمان الذى وعدوا به إذا راح عنهم الجوع وانكشف الدخان .

﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أكد الفعل الماضى الذى يفيد التحقيق بقد التى تفيد التأكيد .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ « ثم » وضعت للدلالة على الترتيب والتراخى، ولكنها هنا مستعملة فى الاستبعاد المعنوى ، أى أنهم تركوا ما وعدوا به ولم يعودوا إليه ، استبعدوا ذلك كلية ، وتولوا عنه وأداروا ظهورهم للنبى .

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ كناية عن إنزال المطر ، وإزالة القحط ، ليس دفعة واحدة ، وإنما قليلا قليلا ، حتى تتراءى لنا ولكم نيتكم الخبيثة ، فى دفع العذاب عنكم ، دون التمسك بما وعدتم به من الإيمان ؛ فالقرآن يؤكد أنهم عائدون إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصى : « إنكم عائدون » .

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ كناية عن يوم القيامة ، أو مجاز؛ لأن البطش يقع فى هذا اليوم ، فالله يؤكد أنه سيبطش بهم فى يوم الحساب والعقاب ، كما يؤكد انتقامه منهم « إنا منتقمون » .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ
عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا
لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا
إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ
﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ
وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ
الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ
عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾

الآيات: ١٧ - ٣٣

أى قبل إرسال محمد إلى قريش ، أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل ، اختبرناهم بتوسيع الرزق والإمهال ؛ ليؤمنوا ، ويظهر منهم ما كان مستورا ، فاختاروا الكفر على الإيمان ، رغم إرسالنا رسولا كريما فى نفسه، كريما على المؤمنين، كريما على ربه ، فقد كلمه الله واستمع كلامه من غير واسطة ، طلب موسى من قوم فرعون ، أن يرسلوا معه بنى إسرائيل ليذهب بهم إلى موطن آبائهم فى الشام ، ولا

يستعبدوهم ولا يعذبوهم ، فهو رسول صادق أمين على وحيه ورسالته ، صادق فى دعواه بالمعجزات ، ونهاهم عن التكبر على الله أو الاستهانة بوحيه ورسالته ، أو استخفاف بعباده وإهانتهم ، وقد أتاهم بحجة واضحة ، ومعجزة باهرة لا سبيل إلى إنكارها ، فلما لم يجد منهم أذنا صاغية ، لجأ إلى ربه مستعيذا به متوكلا عليه، مستعيذا به من رجمهم له ، فهو العاصم من شرهم ، استعاذ بالله أن يرموه بالحجارة أو يؤذوه بالضرب أو الشتم بأن يقولوا إنه ساحر ، فإن لم يؤمنوا به ولم يصدقوه فليكونوا بمعزل عنه لا لهم ولا عليهم ، ويتركوه وشأنه والله كفيل بنصرة دينه ، فينبغى للمرء أنه يعتزل الباطل أيا كان ، لا أن يعتزل الحق .

ولما يئس من إيمانهم ، وبدا شرهم ، ونيتهم فى إيذائه وإيذاء قومه من بنى إسرائيل دعا ربه .

إن قوم فرعون قوم مجرمون ؛ لإصرارهم على الكفر ، ومتابعة الهوى ، وأنت أعلم بهم ، فافعل بهم ما يستحقون، فأمره الله أن يخرج بقومه ليلا على غفلة من العدو ، وسوف يتبعكم فرعون وجنوده بعد أن يعلموا بخروجكم ليلا ليقتلوكم ، وطلب منه ربه أن يترك البحر ساكنا بعد أن يجتازه هو وقومه ، والمراد بالبحر هو البحر الأحمر ، وكان يسمى بحر القلزم ، فإذا جاء فرعون وقومه ، أطبق الله عليهم البحر وأغرقهم فى قاعه ، ليعتبر بذلك أولى الأبصار والعقول . وهنا تتجلى حكمة الله العظيمة . ففرعون كان يفخر بالأنهار التى تجرى من تحت قصوره وأشجاره وبساتينه ، فجاء جزاؤه من جنس ادعاءاته ، فغرق فى الماء الذى كان يفخر به !!

إن قوم فرعون تركوا الكثير من البساتين والأشجار الكثيفة فى أرض متصلة من رشيد إلى أسوان ، والعيون المتشعبة من النيل تتدفق منها المياه ، وزروع ، وفنون من الأقوات وألوان الأطعمة ؛لأنهم كانوا أهل ريف وخصب على خلاف العرب الذين يعيشون فى تنعم ونضارة عيش ، فكثير من ذوى الأموال لا يعرفون كيف يتنعمون بأموالهم ، إلا أن قوم فرعون كانوا يستعملون كل ما فيه تنعم من ملبوسات ومأكولات متلذذين بها ، كل هذا الترف وهذه النعمة تركوها بعد الغرق ، لقوم ليسوا منهم فى شيء من قرابة أو دين أو ولاء مستعبدين فى أيدى قوم فرعون ، فأهلكهم الله وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، ولم يحزن عليهم أحد ، فما بكت عليهم السماء

ولا الأرض، لا حقيقة ولا مجازا – وفى الحديث : « تضرعوا وابكوا فإن السموات والأرض ، والشمس والقمر والنجوم يبكون من خشية الله ». فلم يمهل الله إغراقهم ؛ بل عجل لهم فى الدنيا ، ونجى بنى إسرائيل وخلصهم بإغراق عدوهم فى اليّم، خلصهم من العذاب المهين ، وفرعون فى نفسه هو العذاب المهين مبالغة فى إيقاع الأذى بهم، وإفراطه فى تعذيبهم ، فقد كان متكبرا متغطرسا ، يسرف فى ظلمهم والعدوان عليهم ، وتجاوز هو وقومه الحد فى الكفر والعصيان .

ولقد فضلنا بنى إسرائيل واخترناهم دون غيرهم ؛ لأننا نعلم أنهم أحق بالاختيار والتفضيل رغم علمنا بجناياتهم ، وما يقترفون من أنواع المخالفات ، فلم يؤثر ذلك فى سوابق علمنا بهم ؛ ليعلموا أن الجنايات لا تؤثر فى الرعايات .

وآتيناهم من المعجزات والكرامات كفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التى لم يعهد مثلها فى غيرهم ، ثم اختبرناهم بالرخاء والبلاء فنطالبهم بالشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء .

الأسرار البلاغية :

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أسلوب قسم أريد به التغليظ على القوم المفسدين ، وأكد إفسادهم بإضافتهم إلى فرعون الطاغية الظالم ، وقد وقعوا فى الفتنة ، حيث « جاءهم رسول كريم » فنكر رسول لتعظيمه ، وأكد كرمه بقوله «كريم » .

﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ عظم عباده بإضافتهم إليه تشريفا لهم .

وأكد رسالته بأسلوب آخر يفيد التأكيد بأداة التوكيد إن ، وتقديم الجار والمجرور « لكم » وهو أمين عليهم لا يغدر بهم ولا يخونهم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ومثل ذلك ما تكرر من أساليب التوكيد : ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ ، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ عبر بهؤلاء اسم إشارة ليفيد أنهم ليسوا بعيدين عن قدرة الله ، وإنما فى متناول الأيدى ، وأنك قادر على كسرهم وإهلاكهم ، كما وصفهم بصفة راسخة فيهم وهى صفة الإجرام التى لازمتهم طوال سنى أعمارهم .

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ الأمر هنا للترغيب والحث على طاعة أوامر الله يريد أن يطمئنه على نفسه وقومه من أتباع فرعون وقومه لهم ، حيث أكد لموسى عليه السلام أن فرعون وقومه جند غارقون فى اليم ، ولن يخرجوا من قاعه أحياء .

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ كم هنا لإفادة التكثير أى تركوا كثيرا من الجنات والعيون والزروع ، ونكر جنات وعيون وزروع .. للتعظيم والتنويع والتكثير ، أى جنات عظيمة ، وعيون متنوعة ، وزروع كثيرة ونعم مختلفة ، كل ذلك خلفوه وراءهم ولم يأخذوه معهم ساعة هلاكهم ، ولم يرضوا بها فى الدنيا حيث لم يعترفوا بوجود الله ، ولم يطيعوا رسوله فحق عليهم الهلاك والغرق ، وهذه خاتمة الضالين المضلين ، وكل ذلك سلبه الله من قوم فرعون فورَّثه قوما غيرهم من بنى إسرائيل ، حيث لم يحزن عليهم أحد ، ولم يذرف عليهم دمعة واحدة ، ولم تبك عليهم أرض ولا سماء ، ولم تنح عليهم رياح ، فأراحنا الله منهم ومن غدرهم وظلمهم .

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أسند البكاء للسماء والأرض على سبيل التخييل ، لأن السماء والأرض لا تبكيان حقيقة ، ويمكن أن يجرى البكاء فى السماء والأرض على حقيقته ففى الحديث : « تضرعوا وابكوا فإن السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم يبكون من خشية الله » .

ويؤكد القرآن نجاة بنى إسرائيل وتخليصهم من العذاب المهين ، وإراحتهم من فرعون ، فهو فى نفسه عذاب ، حيث كان مسرفا فى عتوه وجبروته وظلمه .

وفضلهم على كثير من الخلق ، وأجرى على أيدى أنبيائهم كثيرا من المعجزات، وزودهم بالنعم الجليلة، وابتلاهم بالرخاء ليشكروا ، كما ابتلاهم بالبلاء ليصبروا .

* * *

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

الآيات: ٣٤ - ٣٩

إن كفار قريش يصرون على ضلالهم ، ولا يعبأون بتحذير الله لهم، أن يحل بهم العذاب ، فلما أخبروا بأن عاقبة حياتهم ونهايتها الموت ثم البعث أنكروا ذلك ، زاعمين أن نهاية الأمر موتة واحدة تزيل الحياة الدنيا ، ولا بعث بعدها ، فنحن لا نبعث بعد الموت ، ويؤكدون إنكارهم بقولهم للمؤمنين بالبعث والنشور ، إن كان البعث والنشور ممكنا ، فعجلوا لنا بإحياء من مات من آبائنا ؛ ليظهر صدق وعدكم .

فرد الله قولهم بتهديده لهم ، بأنهم ليسوا أفضل ولا خيرا من قوم تبع أحد ملوك اليمن وكان معروفا لأهل مكة ، وذكره لقرب دياره منهم ، فهم على عهد بذكره أبدا، ومن كان قبلهم من عاد وثمود وأحزابهم من الجبابرة وأولى البأس الشديد ، فهم أقوى من قريش وأهل مكة ، وهم يقرون بذلك لجبروت الأمم السابقة ، هؤلاء من أهل تبع والذين قبلهم أهلكناهم ، لكمالهم فى الإجرام وعمقهم فى الآثام فاستحقوا الهلاك .

فنحن ما خلقنا السموات والأرض من غير أن يكون فى خلقهن غرض صحيح وغاية حميدة ؛ بل خلقناهم بسبب الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ، ولكنكم يا كفار مكة غفلتم عن ذلك ولم تتفكروا فيه ، فأنكرتم البعث والجزاء .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿إنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ * إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنـــشَرِيـــنَ﴾ . أكد زعمهم وإنكارهم بنفى الحيـاة بعـد الموت ، أكـد ذلك بإن واللام فى دخـولهـا على الفـعل « ليـقولون » ثم قصـر عـاقبـة أمـرهم ونهـاية حيـاتهم بموتة واحـدة لا تثنى . وأداة القـصـر النفى والاسـتثناء، ونفى اعـتقـادهم بالنشر نفـيا جازمًا -مؤكدا بما والباء الزائدة (وما نحن بمنشرين).

﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأمـر هنا أرادوا به التـعجـيـز « فـأتوا » اعـتقـادا منهم أن عـودة الآباء شىء مستـحيل ، فـأرادوا أن يقيـموا شـاهدا على عجـزهم بعـدم استطاعتهم أن يعيـدوهم ، فهم يجزمون بعدم صدقهم ، ولذا كان التعبير بإن، وليس بإذا ﴿ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ التى تستعمل فى الأمور غير المتحقق من وقوعها .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ الاستفهام هنا لتقرير أن أولئك أقوى منهم ، وفى ذلك تهديد لهم .

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ عبـر بالفـعل الماضى لتحـقيق وقـوع هـلاكهم ، وأن هـلاكهم لا يشك فيه جـاحد أو منكر مهمـا كانت درجة جـحودهم وإنكارهم ، وذلك إمعان فى تهديد أهل مكة لكفرهم بـالرسول محمد عليه السلام ، كما أكد إجرامهم واستمـرارهم على هذا الإجرام « إنهم كانوا مجرمين » واسم الفاعل « مجرمين » يدل على ذلك .

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ أى لم نخلق الخلق والوجود عبثا ولهوا ، وإنما خلقنا السـمـوات والأرض ومـا بينهـمـا بالحق ، فـالقـصـر هنا أداته النفى والاسـتـثناء ، واستدرك إيمانهم بأن الله خالق الوجود كله لغرض الإيمان به وبما جاءت به رسله ، بأنهم لا يعلمون ذلك بسبب غفلتهم وعدم تفكرهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

الآيات: ٤٠ – ٤٢

الميقات : اسم للوقت المضروب للفعل ، فيوم القيامة وقت لما وعدوا به من الاجتماع للحساب والجزاء ، ففى هذا اليوم يفصل بين الحق والباطل ، ويميز صاحب الحق من صاحب الباطل ، ويقضى فيه بين الخلائق، بين الأب وابنه ، وبين الزوج وزوجه ، فيوم القيامة هو موعد الخلائق جميعا حيث يتم فيه الجزاء، فلا يدفع المرء عن قريبه أو صديقه شيئا ، ولا يغنى عنه شيئا، ولا يبعد عنه عذابا ، ولا يملك أن يشفع له ، إلا من رحمهم الله بفضله وعمهم برحمته من المؤمنين ، فالله عزيز لا ينصر من أراد تعذيبه كالكافرين ، رحيم لمن أراد أن تعمه رحمته كالمؤمنين .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أجمعين توكيد معنوى ، أى لن يتخلف عن هذا الموعد أحد مهما كان كافرا أو مؤمنا ، فكلهم يقفون خاضعين لله فردا فردا ينتظرون الحساب والجزاء .

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ نكر مولى للعموم ، أى لا يغنى أى مولى من قرابة أو صداقة أو معرفة أو غير ذلك . ونكر « شيئا » للتقليل ، أي لا يغنى عنه شيئا ولو مثقال ذرة من عصيان ، أو يأخذ منه شيئا ولو يسيرا من طاعة ليحملها لغيره ، وإنما كل شيء يجرى بحساب ويتم بمقدار ، ولا يظلم ربك أحدا .

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بعد قوله ﴿ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ لأن النكرة « مولى »

فى سياق النفى « لا يغنى » تعم كأنه جمع ، فباعتبار هذا المعنى من الجمع ، قال « ولا هم ينصرون » .

﴿إلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّه﴾ استثناء بعد النفى ، أى أن الرحمة من شيم الله وحده ، وليس بمقدور أحد أن يقبل شفاعة أحد إلا الله سبحانه .

فهو ﴿ الْعَزِيزُ الرَّحِيم﴾ صيغة مبالغة ، أى كثير العزة ، شديد الرحمة ، فلا ينصر الكافر ، ولا يرحم إلا المؤمن .

* * *

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾

الآيات : ٤٣ - ٥٠

شجرة الزقوم ، شجرة من نار خلقت فى الجحيم ، وهى طعام أهل النار منظرها كريه وطعمها مرير ، والزقوم ثمرها ، ولا يؤكل إلا بكره شديد ، فهى طعام للكافر الأثيم الذى أوغل فى الإثم ، وهذه الشجرة كالمهل ، وهو دردى الزيت وعكارته ، قوامه غليظ ثخن ، وسمى مهلا : لأنه يمهل فى النار ، وقيل المهل : النحاس والحديد والرصاص يذوب فى النار ويسمى مهلا : لأنه يذوب على مهل ، فطعام أهل النار بلغ الغاية في الحرارة ، وهو يغلى فى البطون ، ليس حقيقة ، وإنما مجاز، كما تقول العداوة تغلى فى صدره ، والحقد يغلى فى قلبه، وكآكل الربا تقول عنه ، أكل فى بطنه نارا يغلى فى معدته ويقطع أمعاءه ، كغلى الحميم ، كغلى الماء المغلى ، الذى وصل إلى قمة غليانه ، فتعافه المعدة ، ولا تقوى على شربه، وإنما تشربه مكرهة مغيظة لأن الله أراد لها ذلك ، ويقال لزبانية جهنم خذوا الأثيم فلا يأخذونه إلا بالنواصى والأقدام يجرونه بعنف وغلظة ، آخذين بمجامع بدنه فى قهر ومذلة ، إلى وسط جهنم ، حيث تعلو حرارتها ، ويشتد أوارها ، لا إلى أطرافها حيث تكون أهدأ وأقل شدة وضراوة . تأخذه ملائكة النار لتصب فوق رأسه الحميم ، وهو بعض أنواع العذاب الذى يلاقيه يوم القيامة جزاء كفره ، وتقول له ملائكة جهنم متهكمة عليه ، مذكرة إياه بجبروته فى الدنيا ، ذق، ألست العزيز الكريم فى قومك ، بل أنت الذليل المهان عند الله ، ويروى أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ : « ما بين جبلى مكة أعز وأكرم منى ، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بى شيئا » فنزلت الآية وعيداً

له ولأمثاله ، هذا العذاب وهذه النار الشديدة ، أليست هى ما كنتم تشكون بها فى الدنيا ، وتجادلون فيها بالباطل ، هذه هى حقيقتها ، فهل من سبيل إلى إنكارها ؟ .

* * *

الأسرار البلاغية :

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ أتى بالجملتين الثانية بعد الأولى دون عطف لأن الثانية شديدة الاتصال بالأولى ، فنفس الشجرة هى طعام الأثيم ، وليست شيئاً غيرها ، ولو جاء بحرف العطف ، لكانت الجملة الثانية لها معنى يختلف عن معنى الجملة الأولى .

فهى طعام الأثيم ، المبالغ فى ارتكاب الإثم ، وهل ثمة إثم أكبر وأفظع من الكفر ؟ !

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ شبه طعام الأثيم ، بأنه كالنحاس المذاب المنصهر لشدة حرارته وعنف لهيبه ، أو كبقايا الزيت الذى غلى واشتد غليانه حتى إذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه ، أو شبهه بالزيت المغلى فى غلظه وسواده ، فلا يقدر أحد على شربه طواعية إلا من أكره على ذلك إكراها كما يفعل بالكافرين يوم القيامة .

وهو يغلى فى بطونهم كغلى الماء الذى يغلى ، ولم يرد حقيقته ؛ بل أثره ، وما يتركه من آلام مبرحة تفعل فعلها فى أمعاء الكافرين ، كمن يأكل غصبا أو ربا أو مال اليتيم ، أو يقال للحاقد أو العدو ، الحقد يغلى فى صدره والعداوة تغلى فى قلبه .

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ الأمر هنا لحث الملائكة بأخذه وسحبه فى عنف وقهر إلى وسط جهنم حيث يكون حرها أشد ، آخذين بناصيته وأقدامه مربوطة بالسلاسل الواصلة بينهما ، منظر فى منتهى المهانة والذلة .

﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ العذاب لا يصب ؛ كالماء من أعلى إلى أسفل لأنه ليس من الأجسام المائعة، والمراد يصب من فوق رءوسهم العذاب وهو الجحيم مبالغة ، وأضيف العذاب للحميم .

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أسلوب فيه تهكم بمن قال ذلك فى الدنيا كأبى

جهل أو غيره من الكفرة المارقين ، أى إذا كنت عزيزا كريما فى دنياك ، فأين هذه العزة والتكريم الآن، أو أنت عزيز كريم ولذلك تلاقى ما تلاقيه الآن من زبانية جهنم، لقد بالغت فى عزتك وكرمك ، ولذلك تعامل هذه المعاملة ، فهى استعارة تهكمية لاذعة ، تنال من صاحبها أكثر مما تنال منه الحقيقة المجردة .

﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ هذا ما كنتم تشكون فيه : بل تجزمون على أن البعث والعذاب شىء لن يقع ولن يكون هناك يوم للحساب والعقاب ، وقد حل اليوم الآن ، وجاء العذاب الساعة .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾

الآيات : ٥١ - ٥٩

إن المؤمنين المطيعين الذين يتقون الكفر والمعاصى يبقون فى مكان أمين ، يأمن صاحبه من الآفات والمخاوف ، ويعيش فى مكان يشتمل على طيبات المآكل والمشارب، تجرى بين يديه الأنهار المتدفقة بمياهها العذبة ، مرفهين يلبسون ما رقّ من الحرير الذى يجرى مجرى الشعار - وهو ما ولى الجسد دون ما سواه من الثياب- ويرتدون من فوق الشعار الاستبرق ، الذى يجرى مجرى الدثار ، وهو ما غلظ وصفق نسجه ، وهو أرفع نوع من أنواع الحرير - وهو الثوب الذى يكون فوق الشعار - فالحرير نوعان : نوع كلما رق كان أنفس ، وهو السندس ، ونوع كلما غلظ كان أرقى، وهو الإستبرق . فأهل الجنة يتحلون بهذا وذاك فى مقام الجنة والتفكه ، وجعلناهم متمتعين تارة بمؤانسة الإخوان ومقابلتهم ، وتارة بمقارنة الحور العين ، إذ ليس المراد إقامة عقد الزواج بينهم وبينهن ، وإنما المراد المصاحبة والمصادقة ، إذ ليس فى الجنة زواج ولا تناسل ، فإذا قيل : زوجناك بها ، أى كنت فردا فقرنّاك ، أى جعلناك شفعا بها ، والله تعالى جعلهم اثنين ذكرا وأنثى .

والحور العين : نساء جميلات بيضاوات نقيات البياض ، واسعات العيون ، يشتد بياض البياض ، ويشتد سواد العيون ، مما يجعلهن فى أبهى صورة ، وأجمل

مثال ، مستديرات الأحداق ، رقيقات الجفون ، وهذه الصفات يتغنى بها العرب فى الظباء فاستعيرت لحور الجنة .

ويزيد المؤمنين سعادة ، أنهم يطلبون كل ما يشتهون من الفواكه ، أى نوع منها فى أى وقت يشاءون ، غير مقيدة بزمان أو مكان معين ، كفواكه الدنيا ، ففاكهة للصيف وأخرى فى الشتاء ، وفاكهة فى اليمن وأخرى فى الشام ، فهى فاكهة دائمة لا تنقطع ، وهم أيضا لا يذوقون الموت فى الجنة ، بل هم مخلدون فيها أبدا، فالموتة الأولى قد ذاقوها قبل دخولهم الجنة ، وقد حفظهم الله من النار وصرفها عنهم ، وأعطاهم نعيم الجنة تفضلا منه سبحانه ، وليس ثمة فوز أعظم من هذا الفوز .

ثم يختم السورة بأنه سهّل الكتاب حيث جعل لغته العربية ، كى يفهمه قومك ويعملوا به ، ويتذكروه ، فإن عصونى ولم يعملوا بموجبه ، فانتظر ما يحل بهم من العقاب، كما هم ينتظرون ما يحل بك من الدوائر ، ولن يضرك ذلك ، فعن قريب يتحقق أملك وتخيب آمالهم .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ المقام : موضع القيام ، أريد به مجازا عموم المكان ، وجميع الأمكنة .

« ومقام أمين » إسناد مجازى ، لأن المقام لا يوصف بالأمن وإنما يوصف به صاحبه أو هو استعارة تخييلية ، كما يقول الزمخشرى : كأن المكان المخيف يحزن صاحبه بما ينزل فيه من المكاره .

أو كناية ، لأنك إذا أثبت وصف الأمن للمكان وأردت أن تصف به صاحبه كان

كناية عن نسبة ، كما تقول : المجد بين ثوبيه ، أثبت المجد لثوبيه ، وأردت إثباته لصاحب الثوب .

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ التنكير هنا للتعظيم والتكثير ، وأراد جنات عظيمة كثيرة عيونها وأنهارها .

وكذلك التنكير فى ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ عظيم الشأن رفيع القدر متقابلين » أراد أن يصف نهاية الأنس الذى يتمتعون به ، فجعلهم متواجهين

ينظر بعضهم فى وجوه بعض مما يدعو للأنس والألفة ، ولا ينظر بعضهم فى أقفية بعض فيكون أدعى لعدم الاهتمام .

وقرناهم بحور عين ، أى قرناهم بنساء بلغن الغاية فى الجمال واللطف والرقة مما يدعو للمؤانسة ، حيث جعل الذكر والأنثى متقاربين متقارنين .

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ التنكير فى فاكهة للتنويع ، لكثرة تنوعها وأشكالها وأحجامها وطعمها ، يستمر أمنهم من انقطاعها ، فهى دائمة لا تنقضى ولا تنقطع ، يتفكهون ويتلذذون بها على الدوام . دوام الفاكهة ، ودوام أنفسهم، فهم مخلدون فى الجنة ، لا يموتون .

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى أن الفوز فيما ذكر من هذه الأشياء التى وصف بها الجنة وتقدم للمؤمنين الطائعين ، وليس فى شىء آخر من الفوز فى الدنيا أو فى المغريات الأخرى .

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أى جعلناه بلغتك ، واللسان أداة اللغة وآلتها ، فالتعبير هنا مجازى .

والقصر مفهوم بالتعبير « بإنما » أى جعلنا القرآن بلغتك ولغة قومك العربية ، ولم نجعله بلغة أخرى ، كالفارسية أو الرومية أو الهندية ، وفى ذلك تكريم لك يا رسول الله ، وتكريم لأمتك يا حبيب الله .

* * *


سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾

الأيات: ١ - ٦

اسم هذه السورة « حم » يشير بالحاء إلى حياته ، وبالميم إلى موته ، يقول بعض المفسرين : الحاء يدل على أن فى بحر حياته حارت الأرواح ، والميم تدل على أن فى ميادين محبته هامت الأسرار .

هذا الكتاب ، أى القرآن حق وصدق ؛ لأنه منزل من قبل الله سبحانه وتعالى، والله هو العزيز الحكيم ، ومن ثم فالقرآن معجز ، غالب غير مغلوب ، ومشتمل على حِكَم بالغة فليس كما يزعم المرجفون من أنه شعر أو كهانة ، أو أنه أساطير الأولين مثل حديث رستم وإسفنديار وغيرهما ، فيجب أن يعرف قدره .

والله قد خلق السموات والأرض، وخلق ما فيهما من آثار تدل على قدرته كالكواكب والجبال والبحار ونحوها ، كل ذلك من شواهد ربوبيته ، ودلائل على

ألوهيته . والمؤمنون وحدهم هم الذين ينتفعون بهذه العلامات وتلك الدلائل على الخالق سبحانه ، حيث يستدل بالمخلوق على الخالق ، وبالمصنوع على الصانع ، ولذا خص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بتلك الآيات .

وكما خلق السموات والأرض خلقكم أيها الناس أيضا ، خلقكم من نطفة ثم من علقة متقلبة فى أطوار مختلفة إلى تمام الخلق ، وخلق ما ينشره على ظهرها من كل ما يدب على وجه الأرض من حيوان ، مع اختلاف صورها وأشكالها وكثرة أنواعها ، وخلق كل ما يسبح فى الأجواء السماوية والأرضية من ملائكة ، مما ينبغى أن يدفع بالمخلوقات أن يوقنوا بالأشياء على ما هى عليه ، واليقين أرفع درجة من العلم والدراية ونحوهما ، وحقيقة الإيمان هى اليقين ، وفى الحديث قوله عليه السلام : « اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ، ويقينا ليس بعده كفر » .

وضم خلق الدواب إلى خلق الإنسان، لاشتراك الجميع فى جنس الحيوان ، فكل ما يدب على وجه الأرض حيوان، سواء أكان حيوانا ناطقا أو غير ناطق . ويقين المؤمن بالواحد القهار شيء طبعي إذا أمعن النظر فى خلقه على أحسن تقويم ، حيث استواء قامته وحسن صورته ، واستكمال عقله ، وتمام تمييزه ، وكذلك إذا نظر فيما عداه من الدواب وأوصافها وطباعها ، وقف على تميز بنى آدم فى الفهم والعقل والتمييز .

وإذا نظر إلى اختلاف الليل والنهار بتعاقبهما وتفاوتهما طولا وقصرا ، سوادا وبياضا ، وما أنزل الله من السماء من مطر هو سبب فى رزق العباد ، حيث تخرج الأرض عارية من آثار الحياة ، فقد كانت جسدا بلا روح ، والمطر هو الذى أحياها بعد ممات ، وفى تصريف الرياح وتحويلها من جهة إلى أخرى ، وتبديلها من حال إلى حال ، كل ذلك يدل على وجود الله عند من يعقل ويفكر ويعتبر ، لأنها دلائل واضحة على وجود صانعها ، وعظيم قدرته ، وبالغ حكمته .

وتلك الآيات القرآنية التى نزلت عليك يا محمد بواسطة جبريل ، نزلت ملتبسة بالصدق والحق بعيدة عن الكذب والباطل ، فبأى حديث أيها الكافرون بعد

هذه الآيات تؤمنون ، وبأى خبر تصدقون ، فالقرآن معجزة باهرة ، فإن لم تؤمنوا به، فبأى كتاب بعده تؤمنون ، أى أنكم لا تؤمنون بكتاب سواه . وقدم لفظ الجلالة فى قوله : « بعد الله وآياته » ولم يقل بعد آيات الله ، فقدم اسمه الجليل تعظيما لشأنه تعالى .

الأسرار البلاغية :

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، خص المؤمنين بالذكر ولم يقل : «لآيات للناس »، لانتفاع المؤمنين بتلك الآيات واستدلالهم بها على وجود الخالق الصانع، فيوحدونه ولا يشركون به شيئا ، ولذا قدم الإيمان فى هذه الآية على الإيقان فى الآية التى تليها حين قال : ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ولأن الإيمان سبيل إلى اليقين .

وقال : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ولم يقل : (إن فى خلق السموات والأرض) كما قال فى الآية التالية : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ﴾ لأن خلق السموات والأرض ، لم يكن مشهودا للخلق ، بخلاف خلق الإنسان ، وما يلحق به من خلق الدواب وتوالدها ، تكون المخلوقية فيه أظهر ، حيث يكون خلقها وخلق الإنسان واقعا تحت البصر .

وأضمر ذكر الله فى قوله : « وفى خلقكم » ولم يقل وفى خلق الله ؛ لقرب العهد به ، حيث ذكر فى الآية السابقة ، وتنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، الآية رقم ٢ .

وخص الإيقان بخلق الأنفس وخلق الدواب حيث قال : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ؛ لأن الإيمان بخلق السموات والأرض إيمان بشىء خارج عن تكوين الإنسان ، بخلاف الإيمان بالأنفس فهو إيمان بشىء داخل فى الإنسان ، وهذا أخص درجات الإيمان ، فإذا كمل الإيمان فى مرتبة الآفاق ترقى العبد إلى المشاهدة فى مرتبة النفس ، فكمال اليقين فى هذه المرتبة ، وليس فى تلك ، فالعلم بما هو فى داخل النفس أقوى من العلم مما هو خارج عنها .

﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ السماء لا تنزل رزقا ، وإنما ينزل المطر فيكون سببا فى وجود الرزق ، كما أن الأرض لا تحيا ولا تموت حقيقة ؛ لأنها ليست ذات روح ، وإنما أراد خضرتها وازدهارها وإنباتها ، بعد جفافها، ويبوستها ، وكونها قاحلة ، فاستعار الحياة بعد الموت ، لإنتاج الثمار بعد الجفاف .

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أخر ذكر الرياح عن المطر ، مع أن الرياح متقدمة عليه فى الوجود ، وهى سبب تكوين السحب التى تهطل الأمطار ؛ للإيذان بأن تصريف الرياح آية مستقلة حتى لا تدخل مع الأمطار فى آية واحدة ، أو لأن للرياح منافع أكثر من مجرد نزول الأمطار ،كسير السفن فى البحار وغيرها . ونكر «آيات» فى هذه الآية كما نكرها فى الآيات السابقة ، تفخيما لشأنها .

﴿لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ، ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، وعبر فى الأولى بالاسم « المؤمنين » وفى الأخريين بالفعل « يوقنون » ويعقلون » ، فالتعبير بالاسم يفيد الاستمرار والثبات على صفة الإيمان لو أنهم تأملوا فى خلق تلك السماء وهذه الأرض وما يحدوهما من أعاجيب ، والتعبير بالفعل ، يفيد التجدد والحدوث بأن صفة الإيقان والتعقل هى صفة تتجدد حالا بعد حال كلما وقع بصر الإنسان على دخيلة نفسه ، أو تعقل اختلاف الليل والنهار ، أو تفكر فى إنزال المطر وإحياء الأرض وازدهارها بعد جفاف وقحط .

ولدهشة الإنسان بخلق السموات ، وهى تلك القبة المرفوعة على غير عمد ، مما يدعو للعجب والانبهار والتفكر فى الأرض وهى هذا البساط الممدود ، فما أدعى لإيمان الإنسان من نفسه ، ومن نزول الأمطار وتصريف الرياح ، ولذا قال « لآيات للمؤمنين » ، ولم يقل لقوم يؤمنون كما قال « لقوم يوقنون » و « لقوم يعقلون » وأخر العقل عن الإيمان والإيقان ؛ لأنه قاسم مشترك بينهما .

* * *

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا
شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ
وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ
مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

الآيات: ٧ - ١١

يتوعد الله بالعذاب كل كذاب يقترف الذنوب ويبالغ فى اقترافها ، حتى إنه لو سمع آيات الله تتلى عليه استهزأ بها وأصر على كفره ، وعقد العزم على إنكارها - والصَّر من الشد، والصرة : ما يعقد فيها النقود - واستكبر عن الإيمان بما سمعه من آيات الله، وكان النضر بن الحارث يشترى أحاديث العجم مثل حديث رستم وإسفنديار ، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن ، فوردت الآية ناعية عليه ، وعلى كل من يسير سيرته ، ويصير لعدم اهتمامه بها ، كأنه لم يسمعها ، هذا وأمثاله انذره يا محمد بعذاب أليم على إصراره واستكباره . وجدير بنا أن نتهكم عليه كما كان يتهكم على آياتنا ، اتخذها واتخذ غيرها من الآيات مادة للهزء بها والسخرية منها ، فهذا النضر بن الحارث وأضرابه لهم بسبب جناياتهم المذكورة عذاب يذلهم ويذهب بعزهم ، فكان هذا العذاب مهينا ، مذلا لكبريائهم توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله ، وجهنم تحيط بهم من أمامهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولن يدفع عنهم هذا العذاب ما خلفوا من الأولاد وما تركوا من الأموال ، لن يغنى عنهم شيئا من هذا العذاب ، ولن ينفعهم أيضا ما عبدوه من دون الله من

الأصنام والأحجار ، التى كانوا يودون شفاعتها لهم عند الله ، فلهم عذاب عظيم لا يدرك كنهه ، ولا تعرف نهايته .

فالقرآن هو غاية فى الكمال والهداية ؛ بل هو الهداية نفسها ، والذين كفروا به وسخروا منه لهم عذاب مريع غاية فى الشدة والهوان .

الأسرار البلاغية :

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الويل كلمة فارسية أريد بها التهديد بالعذاب الشديد ، «وأفاك وأثيم » صيغتان للمبالغة ، أى كثير الإفك والكذب ، كثير الإثم والذنب ، ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أضاف الآيات لله سبحانه تشريفا وتعظيما لها ، وما كان هذه صفته ينبغى احترامه وتقديره ، لا التلعب به والتهكم عليه .

﴿تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ ببناء الفعل المجهول ؛ لأن الغرض هو التركيز على الآيات فى هذا المقام ، سواء تلاها الرسول عليه السلام ، أو تلاها أحد الصحابة رضوان الله عليهم .

﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ عبر بلفظ الصر لما فيه من شدة الامتناع ، حتى لا يلين له ، ولا يرق قلبه فيتدبر عند سماعه الآيات .

﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ التعبير بلفظة « كل » لإفادة الشمول والإحاطة ، وثم يصر التى تفيد التراخى فى الزمن ، أفادت هنا ما ينبغى أن يكون من استبعاد الإصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التى من حقها أن تذعن لها القلوب ، فهى محمولة على المعنى عن طريق المجاز .

وشبه عدم اهتمامهم بأمر الآيات وقبولها والانتفاع بشأنها بأنه « كأن لم يسمعها » إذ أشبه فى ذلك حاله حال من لم يسمعها .

وقد تهكم عليه القرآن هذا التهكم اللاذع حين قال ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . أى أنذره على إصراره واستكباره بعذاب أليم ؛ إذ إن البشرى لا تكون بالعذاب ، فالعذاب هنا قرينة على الإنذار لا على البشارة ، فاستعار البشارة التى تدل على السرور المنعش للإنذار بالعذاب المقبض .

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ نكر « شيئا » لتفيد التقليل ، أى إذا علم شيئا ولو قليلا من آيات القرآن ، ولو آية واحدة ، تهكم عليها كلها، ما سمعه من الآيات وما لم يسمعه ، كالنضر الذى استهزأ بها وعارضها بحديث الفرس .

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فالعذاب لا يوصف بأنه مهين ، وإنما يوصف صاحبه ، فهو الذى يهان ، وقال « عذاب مهين » على سبيل المجاز ﴿من وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ وجهنم كائنة أمامهم ؛ لأن كلمة وراء تطلق على الأمام كما تطلق على الخلف : لأن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص ، أى يسترها سواء أكانت من قدام أو من خلف .

﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ . أى لا يغنى عنهم أولادهم ولا أموالهم شيئا ، أى شىء ولو كان قليلا ، من العذاب الذى أعد لهم ، ولم يكتف بعدم إغناء الأولاد والأموال عن العذاب ؛ بل ذكر ما يبدو أنه أقل ظهورا فى هذا الإغناء وهى الأصنام ، ذكر عدم إغنائها ودفعها للعذاب عنهم - رغم ذلك - لأنهم كانوا يطمعون فى شفاعتها ، اعتمادا على ظنهم الفاسد ، أليس فى هذا تهكم أى تهكم .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ قدم « لهم » الجار والمجرور لإفادة التخصيص ، أى لهم هذا العذاب العظيم دون غيرهم . وبعد أن وصف الذين يتخذون من آيات الله مادة للهزء والسخرية وصف الكافرين بآيات الله بأن ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أى عذاب شديد بالغ فى شدته وألمه ، ووصف العذاب بأنه مؤلم ، وصفه بصفة من يقع عليه العذاب ويتألم منه على سبيل المجاز .

★ ★ ★

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

الآيتان: ١٢ ، ١٣

الله سخر لعباده البحر فجعل سطحه أملس ؛ ليعلو عليه ما شأنه الغوص كالأخشاب ، ولا يمنع الغوص لمانها ، فلو جعل خشن السطح بأن كان ذا ارتفاع وانخفاض لم يتيسر جرى الفلك فيه ، وكذا لو جعله بحيث لا تطفو عليه الأخشاب، وإنما تغوص فى أعماقه لم يتيسر جريها على البحار والأمواج ، وبذلك تضيع المنافع المترتبة على سير البواخر فى البحر والنهر فالفلك التى تجرى فى البحر تجرى بإذن الله ، وتسير عليها ركابها ، ابتغاء لفضل الله عليهم بالتجارة والغوص على اللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة ، وغير ذلك من المنافع المعروفة ، وهذه النعم التى أسبغها الله على عباده ينبغى عليهم أن يلاقوها بالشكر والإقرار بوحدانية الله ، والحكمة فى هذا التسخير مختصة بالإنسان لا بالفلك ، بل سخر الفلك للإنسان،وسخر الإنسان ليكون خليفة الله فى أرضه ، ومظهرا لذات الله وصفاته نعمة منه وفضلا .

وكذلك سخر لعباده كل ما فى السموات وما فى الأرض من الموجودات ، فجعلها مدار منافعهم ، أليس فى ذلك آيات عظيمة الشأن كبيرة القدر دالة على وجود الصانع وصفاته لمن يتفكر فى بدائع صنع الله ، ويدرك دقائقها ، ويوفق لشكرها ، فكل ما فى السماء وما فى الأرض من موجودات خلق لأجل الإنسان ، ووجودها تبع لوجوده ، مما يدل على شرف الإنسان وكماله .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية:

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾ بعد أن ذكر الأرض وإحياءها بعد جفافها عرج على ذكر نعمه الناجمة عن البحر ، ذكر أولا أن الله هو المسخر وليس أحد غيره ، فهذا من شأن الله لا من شأن البشر ، فتقديم لفظ الجلالة هنا لتخصيص التسخير له . والخطاب هنا للناس جميعا : المؤمن والكافر ، الغنى والفقير على حد سواء ، فنعمته تعم الخلق أجمعين .

﴿ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ والتعبير هنا بتجرى أقوى من التعبير بتسير ، لما فى البحر من وثب وسرعة، لا تتيسر للسير الذى يكون على هوادة ، فتقضى المنافع فى تَوِّها دون إبطاء وقال ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ ولم يقل بإذنه ، فعبر هنا بالسبب ، لأن الأمر سبب فى الإذن وعطف ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ على « تجرى الفلك » لأن الجملتين مفادهما ذكر النعم المترتبة على جرى الفلك ، واستخراج ما فى البحر من منافع وثروات .

وكرر لفظ « سخر » فى هذه الآية وما قبلها تأكيدا على أن هذا التسخير ، المترتب عليه المنافع منسوب إلى الله وحده ، فهو بأجمعه منه .

ونكر « آيات وقوم » فى قوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأن الآيات عظيمة الشأن ، كبيرة القدر ، ولأن القوم الذين يتفكرون هم قلة بالإضافة إلى من لا يتفكر ولا يعقل عنادا وتكبرا .

★★★

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

الآيتان: ١٤ ، ١٥

أى قل للمؤمنين اغفروا يغفروا كما قال تعالى ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (إبراهيم : ٣١) أى قل لهم أقيموا الصلاة، وحقيقة الرجاء تكون فى المحبوب ، ولكن المراد هنا للتوقع والخوف ، فهو محمول على المجاز .

والمعنى قل للذين آمنوا يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يخافون الله ، ولا يعتبرون بما فعله بأعداء الإيمان من الأمم الماضية ، فلهم أن يتجاوزوا عن إساءة المشركين والمنافقين ، فإن الله سيجزيهم يوم القيامة جزاء كاملا يكافئ سيئاتهم ، فالله يعطى لكل ذى حق حقه ، فمن عمل صالحا فثواب العمل لنفسه . ومن ارتكب سيئة فضرر إساءته راجع إليه وسيعاقب على فعلته ، فلا يسرى عمل إلى غير فاعله، والكل مرجعه إلى الله ، فاستعدوا للقائه ، ومجازاتكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر، وفى ذلك ترغيب على اكتساب العمل الصالح ، وترهيب عن ارتكاب العمل الطالح .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ هنا حذف أراد به الاختصار والإيجاز ؛ لأن المعنى قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا .

﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ الرجاء يستعمل عادة فى الشيء المحبوب ،ولكنه هنا ينبيء عن عدم توقعهم وعدم خوفهم من عقاب الله ، وهو أمر غير محبوب ، فالحمل هنا على المجاز لا الحقيقة .

و ﴿ للذين لا يرجون أيام الله ﴾ كناية عن كفار قريش الذين يسخرون من البعث ولا يؤمنون بالثواب والعقاب فى الآخرة ، فهنا طباق بين الذين آمنوا ، وبين الذين لا يرجون أيام الله ، أى الذين كفروا ، ولكنه طباق خفى ، ليس واضحًا كل الوضوح .

﴿ ليجزي قومًا بما كانوا يكسبون ﴾ المراد بقوم هنا المؤمنون ، فالقوم هنا كناية عنهم ، والتنكير حينئذ لمدحهم والثناء عليهم .

أو المراد بالتنكير هنا العموم أى جميع القوم ، وليس قومًا مخصوصين بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة ومنها الصبر على آذى المشركين والمنافقين ، وكظم الغيظ ، واحتمال المكاره .

وقد يراد بالقوم هنا الكفرة ، وبما يكسبون : سيئاتهم ، فيكون التنكير هنا للتحقير والذم .

﴿من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ هذه عبارة جاءت لتأكيد الكسب السابق سواء أكان خيرا أم شرا ، وهى تجرى مجرى المثل السائر ، فتتردد على الألسنة فى كل عمل خير أم شر .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

الآيتان: ١٦ ، ١٧

ولقد منحنا بنى إسرائيل عدة أشياء تميزهم عن غيرهم وتبين تفضيلنا لهم ، ولكنهم لم يعترفوا بهذا الفضل ولم يراعوه .

منحهم التوراة، بل منحهم الزبور والإنجيل ، فموسى وداود وعيسى عليهم السلام كانوا فى بنى إسرائيل

ومنحهم الحكمة النظرية والعملية ، والتفقه فى شئون الدين، وفصل الخصومات بين الناس إذ كان الملك فيهم .

ومن عليهم بكثرة الأنبياء كثرة هائلة لم يعرف لها نظير فى غيرهم من الأمم ، فإبراهيم الخليل كان شجرة الأنبياء عليهم السلام.

ورزقهم من اللذائذ الشىء الكثير ، كالمنّ وهو مادة صمغية حلوة تفرزها بعض الأشجار – وطائر السُّمانى .

وفضلهم على كثير من الأمم ، ولكن هذا التفضيل ليس بحسب الدين والثواب، على الرغم من الدلائل الظاهرة فى أمور الدين ، والمعجزات القاهرة التى تؤكد حقيقة الرسل بأنهم من قبل الله ، وقد أنكروا رسالة محمد التى جاءت فى كتبهم المقدسة وعلموا بها ، ولكنهم لم يعترفوا برسالة الرسول بغيا وعنادا ، وعداوة

وحسدا ، وربك سيقضى بينهم فيما أنكروا وفيما اختلفوا ، فى إنكارهم للرسالة، وفى اختلافهم فى أمور الدين .

* * *

الأسرار البلاغية:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ اقسم باللام مؤكدا بقد ودخولها على الماضى، وهذا يقرر تحقيق الإتيان لبنى إسرائيل بهذه الفضائل المتعددة .

والكتاب اسم جنس أريد به مجموع الكتب التى نزلت فى بنى إسرائيل ، فعبر بالخاص وأراد العموم .

ونلاحظ هنا التعبير بالجملة الفعلية الماضية فى خمس جمل متتالية هى « ولقد آتينا ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين، وآتيناهم بينات، فما اختلفوا فيه » ، جاءت كلها بالماضى حيث تحققت بالفعل ، فلا يمكنهم جحودها .

ثم يعبر بالفعل المضارع المؤكد بإن « إن ربك يقضى بينهم » لأنه متعلق بالمستقبل ، بيوم القيامة .

كما يعبر بالمضارع فى قوله « يختلفون » ليدل على تجدد اختلافهم حينا بعد حين ، فلا يهدأ الخلاف بينهم فى الرسالة وصفة محمد التى جاءت فى التوراة والإنجيل حتى ينشب من جديد ، وهكذا الحال ، والذى يؤدى هذه الصورة هو الفعل المضارع وليس الماضى وليس الجملة الاسمية ، فلكل مقام مقال .

* * *

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

الآيات : ١٨ - ٢٠

يخاطب القرآن محمدا عليه السلام قائلا: إنا جعلناك على سنة وطريقة عظيمة الشأن من أمور الدين ، فاتبعها بإجراء أحكامها على نفسك وعلى غيرك من غير إخلال بشىء منها ، فقد ميزناك عن جملة الأنبياء بلطائف فاعرفها ، وخصصناك بحقائق فادركها، وأثبتنا لك الشرائع فلا تتجاوز عنها ، ولا تتبع غيرك من البشر ، فلو كان موسى أو عيسى حيا لما وسعهما إلا اتباعك فلا تتبع آراء الجهلة من رؤساء قريش وابتعد عن اعتقاداتهم الزائفة ، فقد كانوا يقولون لمحمد : ارجع إلى دين آبائك فإنهم كانوا أفضل منك ، ولكنهم لن يرفعوا عنك العذاب من الله إن اتبعتهم ، فالله إذا أراد بعبده نعمة فلا يقدر أحد على منعها ، وإن أراد بك فتنة فلا يقدر أحد على صرفها عنك ، فلا تتوجه بضميرك إلى غير الله ، وثق به وتوكل عليه. والظالمون يوالى بعضهم بعضا ، فلا توالهم ولا تتبع أهواءهم ودم على ما أنت عليه من التقوى والشريعة الإسلامية، وأعرض عما سوى ذلك . وسماهم «ظالمين» لأنهم وضعوا الشىء فى غير موضعه ، وسمى المؤمنين المتقين لأنهم اتقوا الظلم ، واتخذوا الله وليا فى جميع أمورهم .

وهذا القرآن المنزل عليك وفيه معالم الدين والشريعة ، بمنزلة البصيرة للقلب والنور الذى يهتدى به فى ظلمات الحياة ، فمن عرى من القرآن فقد عدم بصره وبصيرته وصار كالجماد ، كالميت الذى لا حس له ولا حياة . وفى القرآن الهدى من ورطة الضلال ، وفيه الرحمة العظمى والنعمة الكاملة ، ومن يعمل ويقتد بما فيه يفز بسعادة الدارين ، وهذا لن يحدث إلا لمن كان شأنهم الإيقان ، وعن النبى ﷺ :

« القرآن يدلكم على دائكم ، أما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار » وأعظم الذنوب الشرك ، وعلاجه التوحيد .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

الآيتان: ٢١ ، ٢٢

فالله ينكر حسبانهم وظنهم ، ظن الكافرين والذين اكتسبوا الكفر والمعاصى بأن نصيرهم فى الحكم والاعتبار مع ما لهم من مساوئ الأحوال مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع ما لهم من محاسن الأعمال ، ونعاملهم مثل معاملتهم فى الكرامة ورفع الدرجات فى المحيا والممات ، كلاهما لا يستوون فى شىء منهما ، فإن المؤمنين فى عز الطاعة والإيمان وشرفهما فى المحيا ، وفى رحمة الله ورضوانه فى الممات ، وكان كفار قريش يقولون نحن أحسن حالا من المؤمنين فى الآخرة - على تقدير وقوع الساعة - لأنهم أكثر أموالا وأولادا فى الدنيا، وما نحن بمعذبين فى الآخرة ، فالعزيز فى الدنيا لا يهان فى الآخرة ، هذا قرارهم وحكمهم ، ساء ما يحكمون .

فالله خالق السموات والأرض ، خلقهما بسبب الحق ولأجل ظهوره ، فما من ذرة من ذرات العالم إلا والله سبحانه متجل فيها بصفات الحق ؛ وتنزيه عن الباطل ، ومن ثم فكل نفس لا تجزى إلا بما كسبت من خير أو من شر ، ولا يظلم ربك أحدا ، فلا ينقص ثواب المحسن ، ولا يزيد عقاب المسيء ، وسمى ذلك ظلما ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾ ؛ لبيان غاية تنزه ساحة لطفه ، فنزله منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عن الله تعالى ، فالله خلق العالم بالحق ليتميز المطيع عن العاصى ، فلابد من المجازاة على وفق الأعمال بين عدل وفضل بلا ظلم وجهل، فعليك أيها المسلم بالمسارعة إلى الأعمال الصالحة ، ولا سيما التوحيد وذكر الله جل شأنه .

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ائْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

الآيات: ٢٣ - ٢٦

إن أمر هؤلاء الكافرين يدعو إلى العجب حقا ، فهم يتبعون ما تهواه نفوسهم الخبيثة ، ويتركون متابعة الهدى ، إلى مطاوعة الهوى ، يتبعونه دون تردد ، كأنهم عبيد لأهوائهم لا يخالفونها أبدا ، شأن العبد مع سيده تجب عليه طاعته وتنفيذ أمره ، ومن يتسم بهذه الصفة يخذله الله ، والله يعلم بضلاله وتبديله لفطرة الإنسان، الأصلية ، بضلاله عن طريق الهداية عنادا واستكبارا ، ويبدو ذلك فى مظهره وتصرفه ، فالله قد ختم على سمعه ، فلا يتأثر بالموعظة ولا يسمع الحق ، وختم على قلبه بحيث لا يتفكر فى الآيات ولا يفهم الحق، وجعل على بصره غشاوة تمنعه من الرؤية ، ومشاهدة آثار قدرة الله فى صنعه فلم ير الحق ، ومن كانت هذه صفاته يستبعد على غير الله أن يهديه من بعد ضلال ، ألا تلاحظون ذلك أيها المخلوقات ، أفلا تتذكرون ولا تتعظون ، واعلموا أن الهداية لا يملكها أحد سوى الله.

يقول منكرو البعث ، ومصدر قولهم ما وقعوا فيه من غىّ وضلال ، وهم مشركو قريش وكفار العرب ، وغيرهم من أهل الفسق والزندقة : ما الحياة إلا

حياتنا التى نحن فيها ، يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك حياة وبعث - ومنهم أهل التناسخ فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان ، فالقائلون بالتناسخ هم قوم ينكرون البعث على ما أثبتته الشريعة ، والتناسخ هو تعلق الروح بالبدن بعد أن تفارق البدن الذى كانت تحل فيه بلا مهلة - أما الذى يميتنا ويهلكنا فهو الدهر ومرور الأيام والليالى ، والدهر هو الزمان الطويل ، وهذه الفكرة التى يعتقدونها من اقتصار الحياة على الدنيا ، وإسناد الحياة والموت للدهر ، فكرة خاطئة تنبئ عن جهلهم ، وظنهم الفاسد، وهو مجرد ظن وتقليد من غير أن يكون لديهم دليل صحيح يدعوهم للتمسك به ، على خلاف المؤمنين الذين أخذوا بالنص القرآنى واعتقدوا فيه ، فسلكوا طريق اليقين ، وتجاوزوا عن ظنون الكافرين وتخميناتهم ، فمن اعتقد اعتقاد المؤمنين نجا وإلا هلك .

وإذا تليت على منكرى البعث آيات القرآن الناطقة بالبعث وبالحق ، وهى آيات واضحة الدلالة على صدق ما نطقت به ، لم يجدوا شيئا يتمسكون به ، إلا أنهم عارضوها عنادا وتبجحا : أحيوا آباءنا وابعثوهم من قبورهم إن كنتم صادقين فى زعمكم بأن هناك بعثا بعد الموت ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ، وهى ليست حجة فى الواقع ، وسميت حجة ، لسوقهم إياها مساق الحجة ، فتهكم الله بهم ؛ لأن من كانت هذه حجته فلا حجة له أصلا ، فالله يحييكم ابتداء ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، وليس كما تزعمون أن الدهر هو الذى يميتكم، ثم يجمعكم بعد البعث منتهين إلى يوم القيامة للجزاء ، ولا شك أن القادر على البدء قادر على الإعادة ، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة « قالوا ائتوا بآبائنا » ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؛ لأنهم أهل نسيان وغفلة .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ الهمزة هنا للتعجب من شأنهم باتباع الهوى ، والبعد عن حكم العقل ، وفطرة النفس ، وسمى الهوى بالهوى ؛ لأنه يهوى بصاحبه إلى النار، وهنا تشبيه مقلوب ؛ لأن المراد أن يشبه الكافر بأنه أصبح عبدا لهواه فكأن هواه إلهه ، وليس الإله هو الهوى ، حيث صار تابعا له ملازما إياه ، يسيره كيفما شاء ، لا يعصى له أمرا ولا يخلف له ظنا ، وأراد بهذا التشبيه المقلوب المبالغة الشديدة حيث جعل تأثير الهوى أقوى من تأثير الإله نفسه .

﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ أى لا يتأثر بسمعه ولا قلبه ، والختم أبلغ لما فيه من الإغلاق على ما فى داخله بحيث لا يتسرب منه أو إليه شىء على الإطلاق ،فليس ثمة أمل فى أن يعود إلى صوابه ، ويدخل فى الإيمان بالله وبالبعث .

﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ نكر غشاوة لتعظيمها ، أى غشاوة عظيمة لا يتسرب منها ضوء من الهداية أو الاستبصار فيدرك الحق وينأى عن الباطل .

﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ﴾ الاستفهام هنا للاستبعاد ، أى إذا أضله الله فليس هناك من يقدر على هدايته مهما كان .

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام هنا أراد به النصح والإرشاد ؛ بأن يعملوا فكرهم ويبعدوا عن ظنونهم الفاسدة .

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ فى الآية طباق بين الموت والحياة ، وقصر بين ما هى إلا حياتنا الدنيا ، أى ليست لنا حياة أخرى ، وقصر آخر بين أن الهلاك لا يكون إلا من الدهر ، وليس من صنع الخالق ، وفى القصر نوع من التوكيد ، بأن هذا اعتقادهم الذين لا يتخلون عنه إطلاقا .

وأراد القرآن أن يكشف جهلهم بحقيقة البعث والحياة بعد الموت فأكد ذلك بقوله : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ حيث التعبير بمن الزائدة التى تضفى التأكيد على المعنى وهو نفى العلم عنهم ، فكأنه وصمهم بالجهل المطلق ، ثم يقدم قصرا آخر ، واختصاصا ثالثا فيقول : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى هم قد انغمسوا فى الظن وابتعدوا عن اليقين ، فليس من شأنهم التدبر أو التفكر، وإنما كان شأنهم التقليد والاتباع لآبائهم وشركائهم .

﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ أى ليس لهم حجة إلا الإتيان بآبائهم ، أى ليست لهم حجة أصلا ، كما تقول « التحية بينهم الضرب والإهانة » فليست التحية إلا الضرب ، وليست الإهانة إلا التحية ، فهو ما يسمى فى عرف البلاغيين بالتنويع . ثم استدرك القرآن عليهم هذه الظنون وبين بطلانها ، فقال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى أكثر الناس يتصفون بالجهل والبعد عن التمسك بالحقيقة ، لا غباء ولكن جهلا وعنادا، وغفلة ونسيانا .

★ ★ ★

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ
الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا
نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ
تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

الآيات : ٢٧ - ٣١

أي:لله سبحانه ملك السماوات والأرض وما بينهما ملكا مطلقا ، وله التصرف الكلي فيهما ، وفي ذلك تعميم لقدرته التي لا تعلو عليها قدرة ، ويوم تقوم الساعة ويحشر الموتى فهو يوم متسع يبدأ من النفخة الأولى ثم يكون فيه البعث والحشر والجزاء ، وكل ذلك جزء من هذا اليوم الممتد ، وفي هذا اليوم يظهر خسران المكذبين بالبعث، كما ترى كل الأمم المؤمن منهم والكافر جاثين على ركبهم من هول ذلك اليوم غير مطمئنة ؛ لأنها خائفة ، فلا تطمئن في جلستها عند السؤال والحساب ، من جثا جثوا : جلس على ركبتيه ، أو قام على أطراف أصابعه . فكل أمة تدعى إلى صحائف أعمالها المدونة في كتابها ، ويقال لهم : من كان عمله الإيمان جزاه الله الجنة ، ومن كان عمله الشرك جزاه بالنار .

ولما كان كتاب كل أمة مدونا بأمر الله أضافه إلى ذاته جل جلاله تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره ، هذا الكتاب يشهد عليكم بالحق دون زيادة أو نقصان ؛ لأننا لم نغفل عن شيء ، لأننا أمرنا الملائكة بتدوين أعمالكم وإثباتها عليكم في صحيفة أعمالكم ، كل أعمالكم صغيرة أو كبيرة ، حسنة أو سيئة .

وبعد أن ذكر بلفظ العموم «كل أمة» فصل وقسم فقال : فأما الذين آمنوا... فيدخلهم الله فى جنته حيث الرحمة والفوز الكبير ، بخلاف الذين كفروا يقال لهم موبخا ولائما ، لقد جاءتكم الرسل ، ثم جاءتكم الآيات بينة واضحة ، ولكنكم استكبرتم عن الإيمان بها ؛ لأن من عادتكم الإجرام ورثتموه جيلا بعد جيل ، فلا تلوموا إلا أنفسكم .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية:

اختص الله بالملك ، فهو مالك للوجود كله سمائه وأرضه ، فقدم الجار والمجرور لإفادة هذا المعنى .

﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أراد تقريب المعنى فشبه الإيمان بالتجارة التى يجرى عليها الكسب ، والكفر بالتجارة التى يجرى عليها الخسران ، وسماهم مبطلين ؛ لأنهم أبطلوا أعمالهم الخيرية ؛ حيث إنها بنيت على أساس غير سليم ، وهو الإيمان والتوحيد ، فكل خير يفعل دون ذلك لا قيمة له ، ويعود بالخسران والضلال .

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى تراها رأى العين ، وليس على الظن أو التخمين ، ترى الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، صغيرهم وكبيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، كلهم دون استثناء يجثون على الركب ، أو يقفون على أطراف أصابعهم من هول ذلك الموقف، وهم مستمرون على الهيئة القلقة غير المطمئنة إلى أن ينتهى حسابهم خيرا أو شرا ، ولذا عبر باسم الفاعل «جاثية» .

﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ كرر هذه العبارة ؛ لأن الموقف موقف تغليظ ووعيد .

﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أى تدعى إلى أعمالها وجزائها ، وأعمالها مدونة فى كتبها، فعبر بالمحل وأراد ما يحل فيه .

﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أشار بالقريب ، فهو أمامهم مدونة فيه أعمالهم، لا يستطيع أحد إنكار ما اقترفه ، متعللا بقوله أين الكتاب الذى دونت فيه أعمالنا ؟ هذا هو فلا تستطيع جحده أو إنكاره .

وأضاف الكتاب إلى ذاته تفخيما لشأن الكتاب ، وتهويلا لأمر ما دوّن فيه .

و ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم ﴾ التفات من الغيبة « كل أمة تدعى إلى كتابها » إلى الخطاب عليكم ، ولم يقل عليهم ، و« ينطق » بمعنى يشهد عليكم ، والنطق لازم للشهادة ، فعبر باللازم وأراد الملزوم .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ فهو تفصيل بعد إجمال ، وتقسيم بعد العموم ، « ورحمته » بمعنى جنته ، أى يدخلهم جنته ، والرحمة حالة فى الجنة ، فهو تعبير مجازى ، أى أن الرحمة تحل فى الجنة ، ولا شىء سوى الرحمة ، والرحمة تشمل جميع الصفات المعنوية والحسية ، من حنان ولذة ، وفى ذلك « الفوز العظيم » فخص دخول الجنة وما بها من رحمة بأنه فوز عظيم ، وليس شيئًا غير هذا الفوز ، ولذا عبر بأل « الفوز» ليفيد التعريف هذا التخصيص .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ . قسم الأمة إلى مؤمن وكافر، وبعد أن تحدث عن مصير المؤمن بدخول الجنة ، تحدث عن مصير الكافر بدخول الجحيم ، فنفى عنهم الأعذار أولا ، بأن أنكر عليهم قلة اهتمامهم بإرسال الآيات ، فالهمزة هنا « أفلم تكن آياتى تتلى عليكم » للإنكار والتوبيخ وشدة التقريع ، وصاغ الفعل للمجهول « تُتلى » فليس القصد بيان من تلاها، وإنما القصد أن هذه الآيات قد تليت عليكم ، ولكنكم جحدتموها ، واستكبرتم عن الحق ، لعراقتكم فى الإجرام ، واستمراركم عليه، فأنتم مجرمون بالفطرة ورثتموها كابرا عن كابر لا يتخلف عنكم جيل فى هذا الإجرام ، ولذا عبر باسم الفاعل « مجرمين » .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي
مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ
مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم
بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا
وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
(٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

الأيات: ٣٢ - ٣٧

إن وعد الله حق واقع لا محالة ، وقيام الساعة أشهر ما وعد به الله ، ولكنكم يا منكرى البعث من الكفار والزنادقة قلتم وأنتم فى غاية العتو ، ما ندرى ما الساعة؟ ما حقيقتها وطبيعتها ، قلتم ذلك وأنتم مستغربون مستبعدون لوقوعها ، هذا مجرد ظن بعيد عن اليقين ولا مكان لوقوع الساعة . ولكن ظهر لهم فى الآخرة ما لم يكن يتوقعوه ، ظهر لهم جزاء أعمالهم من الشرك والمعاصى التى كانوا يميلون إليها بطبائعهم ونفوسهم ، ويشتهونها ويستحسنونها بقلوبهم وأفئدتهم ، فمن ارتكب الحرام يظهر فى صورة الخنزير ، والحريص فى صورة النملة ، والشهوة فى صورة الحمار ، والكبْر فى صورة النمر ، والحقد فى صورة الجمل ، والأذى فى صورة الحية ، وشره الطعام وقذارة المنام فى صورة الجاموس والبقر ، والعُجْب فى صورة الدب ، والحيلة فى صورة الثعلب ، وهكذا تظهر الصورة بحسب الطبع والتصرف ، جزاء ما غرسوه فى مزرعة الدنيا ، فحصدوه فى الآخرة صورة كريهة منفرة تدل

على صاحبها من غير تفكر أو تأمل ، فينزل عليهم جزاؤهم الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا .

ونحن الآن فى الآخرة ننساكم كما نسيتم هذا اليوم ولقاء الله فى الدنيا ، فقد زرعوا النسيان فى الدنيا ، فحصدوا ثمرة النسيان فى الآخرة ، فارجعوا إلى مأواكم ومصيركم من النار ، فلا أحد يخلصكم من إحراقها وآلامها ، لا شفعاؤكم ولا أصنامكم ، فقد غرتكم الحياة الدنيا وغرقتم فيها فحسبتم أن لا حياة سواها فاليوم لن تخرجوا من النار ، ولن تحاولوا أن تتقربوا إلينا بالطاعات والأعمال الصالحة ، فقد فات الأوان ، ولات حين مناص .

فلله وحده الحمد ، فهو رب السموات ورب الأرض ورب العباد ، وهو العظيم القادر ذو السلطان الباهر ، عمت آثاره كل المخلوقات مما يدل على صنعها ، وصانعها هو الله جل شأنه ، فهو عزيز لا يغلب ، حكيم فى كل ما قضى وقدر ، فاحمدوه ؛ لأن له الحمد ، وكبروه لأن له الكبرياء ، وأطيعوه ؛ لأن الطاعة لا تكون إلا له ، بل هو أكبر من حمد الحامدين ، وأياديه أجل من شكر الشاكرين .

★ ★ ★

الأسرار البلاغية:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ عبر بالمصدر « وعد » وأراد المفعول « موعود » على سبيل المجاز .

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ الاستفهام هنا « ما الساعة ؟ » استبعاد لوقوعها وانكارهم لوجودها ، فهو تعبير مجازى ، خرج بالاستفهام عن أصل وضعه .

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أكدوا ظنونهم بفعل الظن ومصدره ، أى هو ظن وليس شيئا آخر غير الظن ، ولذا أكدوه بقولهم « وما نحن بمستيقنين » فمقابل الظن هو اليقين.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ حاق لا يستعمل إلا فى المكروه ، أى أحاطت بهم سيئاتهم من كل جانب كأنها حاقت بهم فلم يستطيعوا منها فكاكا .

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ النسيان هنا تخييل حيث شبههم بالأمر المنسى ، فتركهم فى العذاب دون مبالاة بأمرهم ، شأن المنسى ؛ لأنهم لم يبالوا بها ، ولم يعترفوا بوقوع عذابها .

﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أى هى الملاذ والمكان الذى تأوون إليه ، فلا يستنجدون إلا بها كالمستجير من النار بالنار .

ثم يعلل القرآن سبب هذا العذاب بأنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ وغرتكم الحياة الدنيا فلم تفكروا فى غيرها .

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ التفات إلى الغيبة بعد أن قال على طريق الخطاب : اتخذتم آيات الله ، وغرتكم الحياة ، وهذا الالتفات إلى الغيبة يؤذن بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم وتحقيرا لشأنهم .

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ وحده دون غيره .

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كرر لفظ الرب للتأكيد بأنه صاحب الربوبية .

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقدم الجار والمجرور « له » ، لتفخيم شأن الكبرياء ، فهو العزيز وحده ، وهو الحكيم لا غيره .

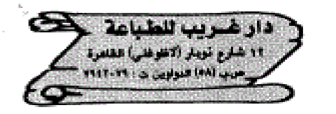
وقدم الحمد على الكبرياء ، إشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من حمدهم ونعمه أجل من شكرهم .

* * *

تم بحمد الله

الفهرس

الموضوع　　　　　　　　　　الصفحة


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة